نعيم صبرى

حافظ بتاع الروبابيكيا

رواية

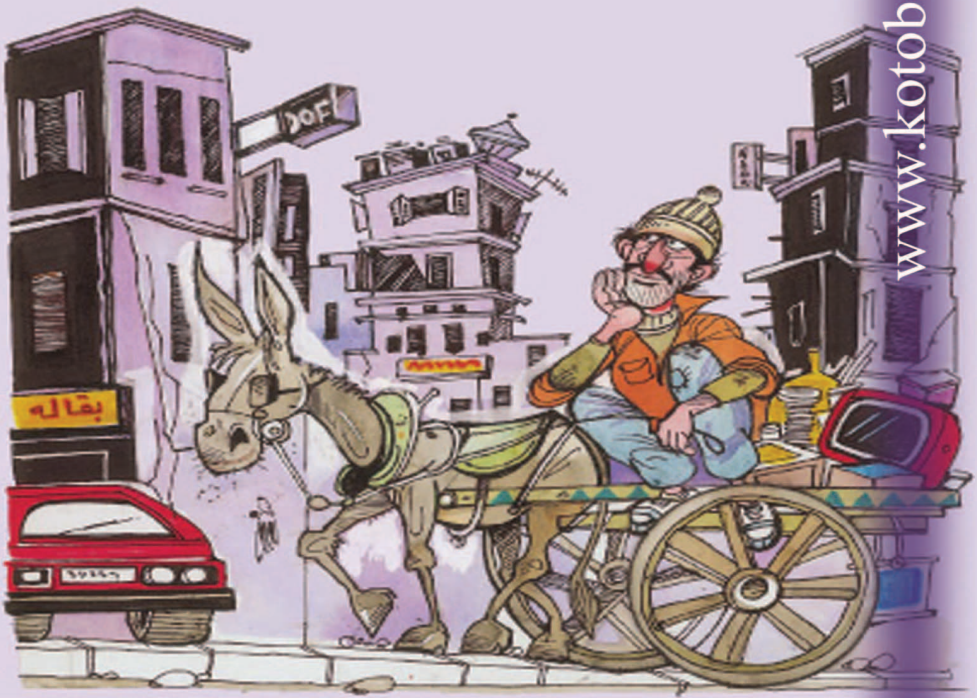

حافظ بتاع الروبابيكيا

نعيم صبري

(١)

يبدو أن مخ الولد حافظ، بتاع الروبابيكيا، قد لسع. يحلف بـ رأس أبيه إنه يسمع صابر الحمار وهو يكلمه كل ليلة بعد أن تنام صـفية والولد. يشكو له حال الدنيا أو يناقشه فى البضاعة التى اسـتلقطاها خلال اليوم.

لا أدرى ماذا حدث للبلد؟!... بتـوع الروبابيكيـا زادوا بشـكل غريب هذه الأيام... هل هى تجارة رابحة؟!... أم أن الناس يبيعون حاجاتهم والمعروض منها كثير؟!... ولماذا يا ترى يبيع الناس؟!... للحاجة أم ترفاً وتجديداً؟!... تسمع نداءات بتوع الروبابيكيا تتـردد فى شوارع مصر الجديدة طوال النهار. لا تكاد تمر دقائق معدودات على مرور أحدهم إلا ويتبعه آخر... إيلى... بيكيا... قليـل مـنهم بعربته وحماره كأيام زمان، والكثيرون أصبحوا مودرن... يسرحون بالتريسكل... لكن الولد حافظ مختلف عـن أقرانـه. دمـه خفيـف وأدباتى. صاحب رأى ويحب أن يفتى فى أمور الدنيا. تـرى هـل يعرف حافظ سبب الزيادة الملحوظة فى بتوع الروبابيكيا؟، أريد أن أسأله فى الأمر عندما يمر على...

- أعطنى علبة سجاير لايت.

- تفضل.

علبة سجاير لايت!... يا ساتر!... هكذا!... بدون صباح الخيـر أو من فضلك!... لو تسمح!... ماذا حدث للناس هذه الأيام؟!... وما هذه التكشيرة على الصبح؟!... هاهو قادم يتمخطر من بعيد... جِبنا سيرة القط...

- صباح القشطة ياسى نديم.
- صباح الفل يا حافظ.
- مالك ياسى نديم، باين عليك متعكر؟!
- زبون مكشر عكر مزاجى.
- إذا كان مكشّرا اضحك له أنت.
- المسألة هات وخد يا حافظ.
- خَلها خد مرات... وهات المرة الجاية.
- دائماً رايق يا حافظ.
- يتهيأ لك.
- على فكرة... أريد أن أسالك سؤالاً، ألا تلاحظ زيـادة عـدد بائعى الروبابيكيا هذه الأيام؟!
- ولماذا لا تقول مشترو الروبابيكيا؟!.. نحن نشترى الروبابيكيا من الناس.
- ثم تبيعونها...
- أنا لا أبيعها دائماً.
- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن الروبابيكيا التى تعجبنى لا أبيعها... أحتفظ بها فـى العشة ولا أفرط فيها.

- ما علينا... نقول بتوع الروبابيكيا يا سيدى... لم تجاوبنى!...

- وهل لكل سؤال جواب؟!

- ألا تعرف السبب؟

- لابد من وجود سبب... لكنى لا أعرفه بالضبط.

- هل توافقنى؟

- ربك سايع الناس فى ملكه... وسالمة يا سلامة... رحنا وجينا بالسلامة...

جاء أحد الزبائن فانقطع الحديث.

- باكو لبان من فضلك.

- تفضل... كلك زوق.

هز حافظ اللجام منبهاً صابر وهو يقول:

- هيا بنا يا صابر... سأتركك لشغلك ياسى نديم.

- نهارك أبيض يا حافظ...

- نهارك قشطة بإذن الله...

إيلى... بيكيا... وسالمة يا سلامة...

نديم صاحب كشك سجاير وحلويات وكازوزة بأحد شوارع مصر الجديدة الجانبية. يمر حافظ عليه أثناء النهار فـى الرايحـة وفـى الجاية. نشأت بينهما مودة طيبة مع العِشرة.

(٢)

- اطلع للمدام فى الدور الثالث، الشقة على اليمين.

بادره بواب العمارة وهو يمر أمامه متسلطِنا بالغناء.

أوقف حافظ العربة أمام البواب وتركها بعد أن أوصـى صـابر بانتظاره. صعد الدرج بهمة ورن جـرس الشـقة. فتحـت خادمـة صغيرة الباب فقال لها:

- البواب قال لى إن الست تريدنى. أنا بتاع الروبابيكيا.

أغلقت الخادمة الباب ووقف حافظ ينتظر. انفتح الباب بعد قليـل وأطلّتْ سيدة ملفوفة تميل إلى البدانة قليلاً وفى منتصـف العمـر. كانت ترتدى جلباباً بيتياً يظهر مفاتن جسمها وقد تهدل شعرها على كتفيها. شعر حافظ بسخونة تندلع فى جسده، تبعها شعور بالانتصاب أربكه فغض بصره وتراجع لا شعورياً خطوة إلى الـوراء. صـفية امرأته تتوحم هذه الأيام وصحتها معتلة بعض الشىء. بدأت بطنهـا تبين قدامها وتباعدت مرات المعاشرة بينهما. كان حافظ معتاداً على معاشرة زوجته يومياً، وهى لا تمانع فى ذلك.

سألته الست:

- هل تشترى ساعات حائط قديمة؟

فرح حافظ لكنه كتم الفرحة لزوم الشغل. أجابها بتحفظ:

- أعاينها وأقول لحضرتك.

أغلقت الست الباب وعادت بعد قليل. وضعت الخادمـة سـاعة الحائط أمامه فانشرح قلبه لمنظرها. سألها:

- هل تعمل؟

- كانت تعمل حتى الشهر الماضى عندما مات صاحبها. والـد زوجى توفى منذ شهر وهو الذى كان يعتنى بها. سنجدد أثاث الشقة ولا مكان لها.

تفاوضا فى السعر قليلاً. أعطاها حافظ المبلغ الذى اتفقـا عليـه وتأبط ساعة الحائط القديمة وهو يكاد يطير من الفرحة. نزل الدرج بحذر حتى وصل إلى العربة. وضع الساعة برفق داخل العربة وهو يقول لصابر:

- ربنا جبر بخاطرنا يا صابر. استفتحنا بهدية.

قفز على العربة بنشاط وسحب لجام صابر. هدهده به فتحـرك. سالمة يا سلامة... رحنا وجينا بالسلامة.

منذ زمن وحافظ يتمنى أن يستلقط ساعة حائط عليها القيمـة. لا يعرف لماذا أحبها منذ رأى واحدة فى فيلم ليلى مراد. شعر يومهـا بأن ساعة الحائط حاجة تانية... قيمة فى القصر... وهل ينفع القصر بدون ساعة حائط بذمتك؟!... كان يسأل نفسه. سيضعها فى العِشـة الآن ويتذكر القصر الذى رآه فى فيلم ليلى مراد فى السـيما... ولا مانع من أن يتخيل صفية كأنها ليلى مراد تغنى لـه، وهـو أنـور

وجدى... لكن شعره ليس غزيراً مثل أنور وجدى... يا خسـارة... لو كان شعره طويلاً وناعماً كشعر أنور وجدى، يتهدل على جـانبى رأسه كلما دخل فى خناقة.

(٣)

مر النهار وحافظ يسرح على رزقه هو وصـابر. اكتفـى مـن النهار أخيراً بغنيمة ساعة الحائط واستدار عائداً إلى عِشته بصحراء مصر الجديدة. قال لنفسه فضل وعدل. غنيمة برزق أسـبوع مـن الكراكيب. كم هو فرحان!... سيقول ذلك لصفية.

تركت العربة العمار وتوغلت فى الصحراء بينما يتباعـد أزيـز الطائرات الهابطة فى المطار. دوشة كريهة ينزعج لها حافظ، لكـن ما باليد حيلة. بدأت روائح طبيخ صفية تتهادى إلى أنفـه... الله!... نهق صابر فقال حافظ:

- هانت... قربنا نصل.

أوقف حافظ العربة أمام العِشة وفك صابر. دخلا إلى صفية التى كانت مقرفصة أمام الوابور البريموس ومنهمكة فى تقليـب الأكـل بالحلة التى تهدر بطبيخها فوقه. ابتهج حافظ وسال لعابه.

- سلام يا صفية.

- الخير على قدوم الواردين... الأكل جاهز يا سيد الرجالة.

- سأضع التبن لصابر الأول.

- وأنا سأضع الحشيش لسعدية واللبن لضلْمة.

استدار حافظ ليضع كيس التبن لصابر ونهضت صفية فوضعت حزمة الحشيش أمام المِعزة سعدية وطاسة اللبن أمام ضلْمة القطـة. جلسا بعدها يتسامران وهما يتناولان العشاء. قال حافظ والفرحة تنير وجهه:

- النهار دا ربنا رزقنى بحاجة كانت فى نِفْسى من زمان.

- ياما أنت كريم يارب!

- ساعة حائط قديمة وقيمة.

- وأنا ربنا رزقنى بدرى. بعت الخضار قبل الظهـر ورجعـت العِشة.

- ربنا يخلى عم مرزوق الخضرى ويرزقه. ساعدنا كثيراً.

- رجل أمير. ربنا يرزقه على قَد نِيته. يعطينى ما أريـد مـن الخضار من دكانه ويصبر على فى الفلوس. عمره ما بخـل علـى بحاجة.

أرادت صفية أن تعاون حافظ على المعيشة بعد الزواج. فكـرت فى أن تبيع الخضار على أول العمار، يعنى علـى هـامش مصـر الجديدة حيث يعيشون. عم مرزوق خضرى مشهور وسمعته طيبة. رجل مضبوط ويحب الخير للناس. ذهبت إليـه صـفية بتحويشـة صغيرة ليعطيها خضاراً تبيعه قريباً من عِشتها وتكسب منه ما قُسِم.

أعطاها الرجل خضاراً بأكثر من المبلغ الذى كان معهـا. شـجعها وقال لها شِدى حيلك أنتِ والخضار تحت أمرك، ولا تنعـى الهـم بالنسبة للفلوس. تبيع صفية الخضـار وتقـوم بتوضـيبه للسـتات الموظفات. تقشر الفاصوليا وتقمع الباميا فى موسمها، تقوم بتقـوير الباذنجان الأبيض والكوسة لمن يريد عمل المحشى، ذلك نظير رزق معقول تستعين به على الحياة هى ومحافظ والناس كلها تحبها وتطمئن لنظافتها.

- تعرفى يا صفية... سأحتفظ بساعة الحائط... لـن أبيعهـا... سأضعها على جنب فى العِشة... سأُشغلها وأضـبطها... وسنسـمع رناتها وتكتكة البندول وهو يتأرجح... تك تك... تك تك.

- لا تبعها يا حافظ... خَلها مادمت حابيها... فداك أى حاجة...

- ربنا يخليكِ لى يا صفية... لا تردين لى طلباً طول عمرك.

- الإنسان لازم يفرح يا حافظ... العيشة لا تساوى بلا فرحة!...

- حقيقى يا صفية... الفرحة أهم من الفلوس.

- فايدة الفلوس إنهـا تجيـب الفرحـة... إذا جاءتنـا الفرحـة خلاص... بركة ولا لزوم للفلوس.

لاحظ حافظ أن صفية لا تأكل زى الناس. سألها:

- خير يا صفية... لماذا لا تأكلين؟!

- نِفْسى مقلوبة...

- لازم من الوحم يا صفية... يا سلام لو ربنا يرزقنا ببنت مـع الولد...

- كله خير من عند ربنا...

نظر حافظ إلى يوسف وابتسم:

- تعالَ يا يوسف... خُد اللقمة دى من يدى.

- أكلتُه منذ قليل.

زحف يوسف بسرعة نحو أبيه وفتح له فمه:

- هم يا جمل...

تلقف اللقمة وجلس مستنداً إليه يستطعمها بسعادة. نظر إليه حافظ بفرح وهو يقول:

- بالهنا والشفا.

سحب حافظ القلة وشرب بعد أن أنهى عشاءه، ارتوى وتجشـأ. نهضت صفية ورفعت بقايا الأكل. عادت لتأخذ يوسف وهى تقـول لحافظ:

- سندخل لننام أنا ويوسف... تصبح على خير.

- وأنتِ من أهله... هاتى الولد أبوسه.

مدت له يديها بالولد فأخذه وقبله قبلة رنانة وهو يقول:

- سأُعلمك الأعداد على الساعة الجديدة... واحد اثنين تلاتـة... عم نديم شحاته... بياع الشوكولاته... يبيع ويدينى...

(٤)

عم شحاته، والد نديم، كان يعمل بواباً بإحدى العمارات القريبـة من موقع كُشك نديم الحالى. لم يكن الكُشك موجوداً وقت حياته، فعم شحاته، رحمة الله عليه، توفى منذ عدة أعوام. كان نديم وقتها طالباً بالسنة الثانية الثانوية. عم شحاته أب لأربعة أبناء، ولدين وبنتـين. نديم هو الابن البكرى وخلفه طابور الأبناء. يسكنون جميعاً بغرفتين صغيرتين فى مدخل العمارة التى يخدم بها عم شحاته، إلـى جـوار السلم، أو للدقة تحت السلم، بناهما الخواجا ناشد عندما بنى العمـارة الصغيرة قبل ثلاثين عاماً، لسكنى البواب وعائلته. الخواجا ناشد لـم يكن خواجا ولا حاجة، إنما هو قبطى مصرى من ملـوى أصـلاً، أقصد عائلته، لكن الناس أطلقوا عليه الخواجا ناشد، مثلما يطلقـون فى بعض الأحيان لقب الخواجا على الأقباط فى الأرياف، ولا يعرف أحد لماذا!.

توفى عم شحاته البواب فجأة. كان كبيراً فى السن، لكنه لم يكـن يشكو من مرض خطير، شكواه كانت عادية فى مثل سِـنه، أحيانـاً احتباس بسيط فى البول يزول بمجرد شُرب البقدونس الذى تغليه له الخالة أم نديم، أحياناً أخرى آلام فى ركبِه أو فـى سلسـلة ظهـره فيقولون له روماتيزم من البرد أو من رطوبة الغرفتين تحت السلم.

ترك الأولاد للخالة أم نديم المسكينة، ست وحدانية ولم يظهر لها أهل طوال مدة عيشتهم فى البيت. الخواجا ناشد قـال، لا يمكـن أن يمسك العمارة بواب آخر طول ما أنا عايش. الست أم نديم تبقى فى العمارة هى وأولادها وتمسك هى العمارة. الحمدلله، لم يعترض أحد من السكان، فالعمارة يسكنها ناس طيبون فـى معظمهـم، بعضـهم أقارب للخواجا ناشد وبعضهم ليس كذلك، لكنها بنيت منـذ ثلاثـين عاماً أو يزيد، وناسها من ناس تلك الفترة وما قبلها.

المهم، تكافل السكان لمساعدة الأسرة. أكمل نديم الثانوية العامـة بالكاد، كان يتحمل معظم عبء العمارة، إلى جوار مذاكرته للثانوية العامة. اتخذ قراره بضرورة البحث عن عمـل بعـد الامتحانـات وغض النظر عن أمل إكمال الدراسة الجامعية الذى كان يراوده.

بعد ظهور النتيجة، توسطت له المهندسة آمال، التى تعمل بحـى مصر الجديدة وتخدم كل الناس، فى الحصول على ترخيص لكُشـك يتكسب منه وينفق على الأسرة. هكذا حصل نديم على الكشك وبـدأ حياته العملية لتحمل مسئولية أمه وتعليم إخوته.

هذه حكاية نديم شحاته صاحب كُشك السجاير والحلويات، والذى نشأت بينه وبين حافظ بتاع الروبابيكيا علاقة مودة أساسها: أو فلنقل تَوخيا للدقة منشؤها الكتب القديمة، التى يستلقطها حافظ من آن لآخر من الزبائن.

تعود نديم على قضاء وقته الطويل فى الكُشك فى قراءة ما يصل إلى يديه من جرائد ومجلات، جديدة وقديمة. أوصى بعض زبائنـه الذين يأنس لهم، بإعطائه المجلات التى يقرءونها بعد الفراغ منهـا، كما كان يطلب أيضاً من بعض طلبة الجامعة، إقراضه بعضاً مـن القصص والروايات التى قد تكون بحوزتهم. نديم محبوب من الجميع وأنشأ علاقة مودة مع معظم الزبائن.

سأل حافظ ذات مرة فى بداية تعارفهم:

- هل تقع فى يديك بعض الكتب القديمة من زبائنك؟

فرح عندما أجابه حافظ بالإيجاب وأوصاه أن يمرر عليه ما يقع بين يديه من الكتب قبل التصرف فيها. قال له حافظ بترحيب:

- من العين دى ومن العين دى...

ومنذ ذلك اليوم توطدت الصداقة بينهما. اشترى من حـافظ فـى البداية الكتب القديمة التى كانت تعجبه. تحول الأمر بعد ذلـك إلـى استعارتها من حافظ وإعادتها إليه بعد قراءتها، ذلك عنـدما تحشـم حافظ من أن يبيع الكتب لصاحبه وحلف برأس أبيه إنه لـن يأخـذ مقابل للكتب من نديم. توصلا، كحل وسط، إلى موضوع الاستعارة والإعادة للكتب بعد الفراغ من قراءتها، على اشتراط من حافظ بأن يحتفظ نديم بما يعجبه من الكتب بعد قراءتها، وألا يعمل تكليفاً بينـه وبين حافظ ولم يسترح قبل أن يجعله يقسم على ذلك قال له يومهـا بود:

- ياسى نديم، الفلوس ليست هى كل حاجة.

وافقه نديم بمحبة:

- عندك حق يا حافظ.

(٥)

كان نديم فى البداية يقرأ كل ما تقع عليه يداه. مع مرور الوقـت أصبح ينتقى ما يقرؤه. أحب فى البداية القصص والروايات. بكـى يوم قراءة بـول وڤـرجـينى وأصبح يبحـث عـن كتـب بقلـم المنفلوطى، وقعت بعض قصص سلسلة كتابى فى يده فأعجبه الكثير منها، آلام ڤـرتر ومدام بوڤـارى. قـرأ الكثيـر مـن القصـص والروايات لأسماء بدأ يحفظها، جورجى زيدان، عبد الحليم عبد الله، إحسان عبد القدوس ويوسف إدريس، نجيب محفوظ وأسماء أخـرى كثيرة، تتردد أحياناً وتختفى أحياناً. وجد نفسه بعد ذلك يميـل إلـى حكايات التاريخ، فرعونى وإسلامى ومصرى. قرأ عن مينا موحـد القطرين وتحتمس ورمسيس، عمر بن الخطاب وصلاح الدين، محمد على باشا ورفاعة الطهطاوى وعرابى، مصـطفى كامـل وسـعد زغلول. كان يقرأ بنهم ويحكى ما يعجبه من حكايات لحـافظ الـذى كان يستمع إليه بشوق ويستزيده، منها تسلية ومنها إعجاب. قد يكون أيضاً احتياجاً للحكى وشعوراً بالقيمة لما أصبح يعرفه. حافظ يسـأل

وهو يجيبه. كان حافظ كثير السؤال وكان نـديم يرحـب بأسـئلته ويسهب فى الحكى وهو يجيبه. عندما وقـع كتـاب رفاعـة رافـع الطهطاوى، "تخليص الإبريز فى تلخيص باريس" فى يد نديم وحكى عنه لحافظ، أُعجب به حافظ أيما إعجاب وأصر أن يحتفظ به نـديم ليقرأ له منه. كان يتمنى لو يعـود الـزمن ويسـافر مـع الشـيخ الطهطاوى ليعمل مساعداً أو خادماً له، حتى يتمكن من الفرجة على باريس وناسها وأحوالها، ويرى بعينيه ما حكاه الشـيخ الطهطـاوى عنها من أعاجيب.

(٦)

توجهت صفية ويوسف إلى فَرشَة النوم خلف الحاجز الذى صنعه حافظ ليفصل مكان النوم عن قَسحِة المعيشة، والتى تـؤوى أيضـاً الركن الذى يقطنه صابر وسعدية، فـى مواجهـة ركـن تخـزين الروبابيكيا لحين التصرف فيها بالبيع فى سوق باب الفتوح. خلـف حاجز مكان النوم، يضع حافظ أشياءه العزيزة على نفسـه والتـى يصطفيها من الروبابيكيا.

نهض حافظ من قعدته وتوجه إلى عربة الروبابيكيا، حمل ساعة الحائط برفق ووضعها فى ركنه الحميم. عقد العزم على البحث عن ساعاتى لتشغيل ساعة الحائط وهو يجلس قبالتها يتأملها برضا.

همسات متسائلة تَسمعها بصعوبة لخفوتها:

- هل ستحتفظ بى عندك صحيح، كما ذكرت للست؟

تلفت مذهولاً حوله، الصوت يختلف عن نبرات صـوت صـابر التى ألفها من كثرة تبادل الحديث بينهما فى الليالى على ضوء القمر والنجوم. تبين أن الصوت ينبعث من جهة ساعة الحائط...

تساءل فى وجل:

- من الذى يتكلم؟!... اظهر وبان عليك الأمـان!... أنـا فـى عرضك... لا تؤذِنى...

حافظ يخاف بعض الشىء من الجن والعفاريت، كان قد تصـور فى المرة الأولى التى سمع فيها صوت صابر يكلمه، أن من يخاطبه كان عفريتاً. لم يطمئن إلا عندما أوضح له أنه صابر ولا أحد غيره.

تشجع الصوت وانجلى قليلاً بوضوح أكثر:

- أنا الساعة... ساعة الحائط... ألم تذكر للست أثناء العشاء أنك تنوى الاحتفاظ بى... أرجوك طمئنى...

تأمل حافظ ساعة الحائط بارتباك... هل تتكلم ساعة الحائط معه أيضاً مثلما يفعل صابر؟!... يا داهية سوداء!... إذا كان سى نديم لم يصدقنى عندما أسررت إليه بخبر حديث صابر معى، فكيف سيكون حاله إذا علم بموضوع الساعة أيضاً؟!...

- من فضلك... جِلّ ريقى ربنا يسترك.

تلعثم حافظ وسألها:

- لكن كيف تتكلمين وأنت جماد؟!...

- أنا لست جماداً... الله يسامحك... أنا ساعة حائط عمرى أكثر من مائة عام... يعنى أكبر من أبيك... عشت حياة طويلة وشفت حاجات كثيرة... ولدت ببلاد بعيدة على يد أسطى محترم، تعب فى كثيراً وكنت أحبه مثل أبى... تجولت فى بيوت عديدة وبلدان مختلفة، أحبنى الناس وأحببتهم، ولو أن الست الأخيرة، الله يسامحها، زوجة ابن صاحبى الأخير لم تحبنى... فباعتنى لك.

- سبحان الله!... يعنى أنتِ ساعة الحائط التى تتكلمين معى الآن؟!...

- نعم يا سيدى... هل أستطيع أن أناديك باسمك؟... لقد سمعت الست وهى تقول لك... لا تبعها يا حافظ... وهى توافقك على رغبتك... على فكرة ست طيبة وتحبك...

- والله!... نادينى كما تشائين...

- لم تُحِبنى ياسى حافظ!...

- لا لن أبيعك... منذ زمن طويل وأنا أتمنى الحصول على ساعة حائط... ستبقين معنا.

- لكنك دفعت مبلغاً فى للست، كيف ستعوضه؟

- أنت العوض... الفلوس ليست هى كل حاجة.

- أنت غريب قوى ياسى حـافظ... رغـم معيشـتك البسـيطة وحياتك المتواضعة، لا تؤاخذنى، فإنك لا تهتم بالفلوس مثل معظـم الناس!

- أليست فائدة الفلوس أن توفر حاجات الإنسان؟!... أنا محتـاج لكِ، ولوجودكِ معنا. سآخذك للساعاتى حتى تبـدئى فـى الـدوران والغناء... تن تن... تن تن...

- المسألة لا تحتاج إلى ساعاتى ولا حاجة... الست أهملتنى منذ وفاة صاحبى الله يرحمه... لا عليك إلا أن تملأ الزمبلـك بالمفتـاح الصغير الموجود بداخلى وسأعود للعمل فوراً...

- واللهِ العظيم!...

- جرب وسترى بعينك...

نهض حافظ بهمة وتوجه إلى السـاعة. فـتح ضـلفة السـاعة الزجاجية فوجد المفتاح... فَتشَ قليلاً حتى استدل على الزمبلك وبدأ فى ملئه بفرح عظيم. أنهى الملْء فقالت له:

-هِز البندول وانفخ التراب من عليه.

نفخ حافظ التراب فطارت العفارة فى وجهه. هز البندول بدفعـة خفيفة من كفه فشرع فى التأرجح وسمع صوتاً راقصاً منبعثـاً مـن الساعة طرب له أيما طرب... تك تك... تك تك... صـفق بيديـه طرباً وقال والضحكة تفترش وجهه:

- سيفرح يوسف بكِ عندما يسمعكِ تغنين كل ساعة!...

- سلمت يداك... لا أعرف كيف أشكرك لأنك لن تبيعنى... أنـا أخاف من البهدلة... لا أحب كثرة الانتقال من بيت إلى بيت ومن يد ليد...

توجس حافظ فجأة وقال لها:

- لكن العِشة ليست على قد مقامِك... أنت طول عمرك مكانـك القصور والسرايات!...

- لا يهم المكان ياسى حافظ... المهم الناس الحلوة... ألا يقـول المثل عندكم... جنة من غير ناس ما تنداس!...

- القصور أيضاً ملأى بالناس.

- ليسوا دائماً طيبى القلب... وغالباً ما تجـدهم مشـغولين ولا ينتبهون لك... يتركون رعاية ما يملكون لشغالى القصر وخادميه... كثيراً ما تجدهم شايلين هـم الـدنيا علـى دمـاغهم... مخـاوف وصراعات، فلوس وسيطرة وسلطة... ما يهمنى هو العِشرة الحلوة والصاحب الحقيقى.

- أنت تفهمين الكثير!...

- من كثرة ما رأيت وسمعت.

- احكى لى عن أصلك وفصلك... عن همك وغَمك من يوم مـا ولدتك أمك...

- دى حكاية طويلة ياسى حافظ...

- احكى احكى يا شيخة... الليل طويل والنجوم حلوة وونَسة.

- شُف يا سيدى... بدأت حياتى فى بلدة بعيدة، علـى الناحيـة الثانية من البحر وبرد جداً... صاحبى الأصلى، الذى أعتبره كأبى، تعب كثيراً فى شغله حتى أصبحت كما ترانى الآن... الحقيقة إنـه ماهر جداً فى صنعته... أسطى معتَبر وله صبيان كثيرون، يعلمهـم الصنعة فيعملون تحت يده لفترات تطول أو تقصر، ثـم يسـتقلون بجهدهم، فيعلم هو غيرهم. بعد أن انتهى من إنجازى وتجهيزى على أحسن وجه، جاء تاجر ساعات يعرفه من المدينة واشـترانى مـع أخريات وسافر ليعرضنا فى دكانه الفسيح. دكان ملـىء بالسـاعات والمنبهات على كل شكل ولون...

- وبعدين!...

اندمج حافظ مع رواية ساعة الحائط فسألها المزيد.

- جاء رجل تبدو عليه النعمة، دخل إلى الدكان وبصحبته اثنـان كالحاشية، تجول وتفرج، تفكر ملياً ثم حزم أمره على شرائى، مـن الواضح أننى أعجبته أكثر من غيرى، اصطحبنى معه إلـى قصـر ريفى يعيش فيه مع زوجته وكثير من الخدم.

- ألم يكن عنده أولاد؟!...

- لم يرزقه الله بالذرية على كثرة ما أعطاه من ثروة. وضـعنى أحد الخدم على حائط بصالة فسيحة وتولت مدام ماتيلدا العناية بـى. تنفض عنى الأتربة بريشتها وتملأ الزمبلك. كانت تحبنى كثيراً. تقف لتتأملنى بعد تنظيفى وهى تبتسم ابتسامة حلوة.

- هل كانت تعيش معكم فى القصر؟... أنا عندى زبونة اسـمها مدام ماتيلدا وتتكلم بالفرنساوى أيضاً مع ابنتها، لكنها ست قرشانة.

- لا، مدام ماتيلدا بتاعتنا كانت تذهب لبيتها فى المساء بعـد أن تنتهى من عملها وتعود فى الصباح من النجمة...

- وبعدين!...

- مات صاحب القصر بالنقطة فلم تتحمل زوجتـه البقـاء فـى القصر بعده، كانت تحب زوجها كثيراً وكان القصـر يـذكرها بـه وبأيامه. قررت بيع القصر فاشتراه منها أحد التجار الموسرين. لـم يعجبه أثاث القصر فباعه لتاجر يعمل فى أثاث القصـور، وبـاعنى ضمن الأثاث.

- هل عشتِ طويلاً بالقصر؟

- لا أدرى عدد السنين، لكنها مدة طويلة، نسيت العدد بالضبط.

- ولم ترى مدام ماتيلدا؟!

- للأسف لا... حزنت عليها كثيراً.

- المهم، ماذا حدث لكِ بعدها؟

- اشترانى رجل من بلدياتك. كان هناك يدرس بالجامعة. أعجبته فاشترانى ووضعنى فى حجرته الصغيرة. كانت حجرة ينشرح لهـا القلب رغم صغرها.

- لكنها طبعاً تفرق كثيراً عن القصر.

- لا والله. أنا أحب الأماكن المحندقة.

- هل كان يعيش بمفرده؟

- كانت تجيئه صاحباته أحياناً، يقضين الليلة معه ثم يرحلن فـى الصباح.

- ويبتن معه وهن لسن زوجاته.

- سِلو بلادهم... عاداتهن تختلف عن العادات عندكم ياسى حافظ ولو أننى سمعت أن هذه الأمور كثيراً ما تحدث عندكم أيضاً، ولكن فى الخفاء... يعنى ولا من شاف ولا من دِرى... مع إن كل النـاس تعرف، لكنها تسكت وتتجاهل...

- المهم، ماذا حدث بعد ذلك؟

- أنهى دراسته وحملنى مع بعض حوائجه إلـى هنـا، ركبنـا المركب ومكثنا به أياماً طويلة.

- وهل حافظ عليكِ هنا؟

- صاحبى كان ابن ناس متيسرين، زوجوه من بنت زى القمـر وعاش بقصر فى الريف وسط مزارعه الواسعة التى ورثهـا عـن أبيه. أخذ الباشاوية وربنا رزقه بأولاد كثيرة.

- حكايتك طويلة وغريبة!...

- ما غريب إلا الشيطان... حكاية عادية لأية ساعة حائط مثلى. تظل تطوف من بيت إلى بيت طول عمرها. ساعة فـوق وسـاعة تحت...

شعر حافظ بغصة فى حلقه... أهى تقصده الآن بهذا الكلام؟!... يا الله... المسامح كريم... لقد طلبت منى أن تبقـى معـى عنـدما رغبت فى ذلك... يعنى الرغبة متبادلة... وكل واحد على قده...

- المهم... عشت طويلاً بالقصر حتى كبـر الأولاد وتزوجـوا وتركوا القصر. بعدها مات الأب ولحقته زوجته. فرغ القصر علينا أنا وبقية العفش.

- وماذا حدث بعدها؟

- الأولاد لا يحبون الريف. باعوا الأثاث لتاجر بحى العطـارين فى الإسكندرية ثم باعوا الأرض والقصر. اشترانى صاحبى الأخير منه، كان ضابطاً بالجيش، ماتت زوجته فانتقل للمعيشة مـع ابنـه وزوجته التى باعتنى لك بعد وفاته... الله يرحمه، كان رجلاً طيبـاً وأحبنى كثيراً. أخذنى معه إلى بيت ابنه مع أشياء قليلة تخصه عندما اعتلت صحته واضطر إلى ذلك.

- ياه!... أنتِ شُفْتِ ناس وأحداث كثيرة!...

- أكثر من الهم على القلب... شفت حروب وخناقات وسـمعت عن انتخابات وسرقات... ثورات ومؤامرات... الباشا صاحبى عين وزيراً وخرج من الوزارة... سمعت عن ملوك وملكات... زيجـات وخيانات... كل شىء تتخيله... لكنى أيضاً شُفت أيام حلوة كثيرة... الكدب خيبة. عشت أفراحاً ورأيت ناساً مبسوطة وفرحانة... الـدنيا فيها وفيها... يتهيأ لى إنك لازم تنام... الوقت تأخر وأراك تتثاءب.

- عندك حق... لازم أرتاح حتى أستطيع الصـحيان بسـهولة لأسعى على رزقى.

- ربنا يرزقك على قد نيتك... تصبح على خير...

- وأنتِ من أهله...

(٧)

نام حافظ وحلم أنه وسط عالم من ساعات الحائط. الشوارع تسير فيها ساعات الحائط والمحلات باعتها ساعات الحـائط. المـدارس تخرج من أبوابها ساعات حائط صغيرة وهى تجرى فرحة وتعمـل زيطة محببة.

(٨)

استيقظت صفية مبكرة كعادتها. تحب النوم باليـل والصـحيان بالنهار. أرضعت يوسف ثم حلبت سعدية. وضعت بعضاً من الحليب لضلْمة وتركت الباقى منه لحافظ عندما يصحو. وضعت حزمة مـن الحشائش لسعدية ثم خرجت بعيداً عن العِشة لقضاء حاجتهـا فـى الحفرة التى جهزاها لذلك عند بناء العِشة. اغتسلت وعادت.

تركت حافظ وصابر نائمين، فهما ينامان معاً ويستيقظان معـاً. حملت يوسف على كتفها ودفعت عربة الخضار أمامها لتبدأ نهارها. توجهت إلى عم مرزوق الخضرى، حملت منه احتياجاتها وتوجهت إلى حيث اعتادت أن تقف منادية على بضاعتها. أخرجـت فرشـة

يوسف من باطن العربة وفرشتها إلى جوارهـا علـى الرصـيف. أخرجت له لُعبه، غطيان كازوزة ونوى مشمش كانت تلعب به الكبة مع حافظ فى أوقات فراغهما، بالإضافة إلى علبة الورنيش الفارغة. تضع كل هذا فى كارتونة حِزم مستوردة وجدتها بالشارع إلى جوار كوم الزبالة، لكنها كانت نظيفة. بعـد أن اطمأنـت علـى يوسـف وانهماكه فى اللعب، شرعت فى النداء على الخضار... يـاللى زى اللوز يا كووووسة... حمرا يا طماطم... وهكذا...

استيقظ حافظ متأخراً قليلاً بعد سهرة الأمس. نظر إلـى سـاعة الحائط على رجاء أن تواصل حديثها. لم تنطق بشىء. ألقى عليهـا التحية فلم ترد... حاجة عجيبة!... مصمص شـفتيه وراح ليـوقظ صابر ويضع له إفطاره. عَير ريقه باللبن وأكل كسرة خبز ثم خرج لقضاء حاجته والاغتسال.

استعد لبداية نهاره بعد فراغ صابر من إفطاره. وضع النقود فى محفظته الجلدية ودسها فى صدره بجيب الصديرى. كـان امتلاكـه لمحفظة جلدية ودسها فى صدره كالكبار حلمه طوال فتـرة عملـه صبياً مع المعلم سعد، الذى كان يسرح معه وتعلـم منـه الصـنعة. يتحسسها أولاً بيده من فوق الجلباب فى عظَمة ثم يفرد صدره ويدس يده الأخرى ليسحبها على مهل... يفتحها ببطء ويتفرس فيها وهـو يفكر فى الرقم الذى سيقوله للزبون ثمناً للبضاعة، يفعل ذلـك بنيـة التأثير على الزبون وهو يرى المحفظة تخرج وتنفتح فيتوقع الفلوس،

بعدها سيكون أكثر طواعية فى قبول المبلغ المعروض عليـه فـى مقابل البضاعة. يفاصل معه حقاً ولكن بتساهل بينما يجـرى ريقـه على الإمساك بالفلوس فى يده.

سحب حافظ باب العِشة وأغلقه بالقفل. لم يكن يغلقه فيما مضـى قبل أن يتزوج، لكن ما العمل وأولاد الحرام قد زادوا هذه الأيام!... الحرص لازم من أجل مستقبل يوسف والعيل القادم فى الطريق بإذن الله. ربط صابر بالعربة وقفز عليها ليستقر فـى جلسـته المعتـادة وساقاه متدليتان على جانب العربة الأمامى، وهما تكادان تلامسـان الأرض، بل وتلمسانها فعلاً فى المطبات العامرة بها الشوارع.

قبل أن يشرع فى الحركة، لاحظ رجلاً مرتـدياً معطفـاً كـاكى اللون، فوق جلباب مخطط وهو يقترب منه ويشير إليه قائلاً:

- هل أنت بتاع الروبابيكيا؟.

- صباح الخير الأول!... نعم، أنا حافظ بتاع الروبابيكيا.

- مطلوب فى القسم، حضرة ضابط المباحث يريدك أن تحضـر إليه الآن.

- يا فتاح ياعليم يارزاق يا كريم... خير إن شاء الله!...

- لا أدرى... يريدك أن تذهب إليه... هيا تعالَ ورايا.

سار الرجل بعظمة وخلفه حافظ وصابر بالعربة... اغتم حـافظ وانقبض قلبه، ماذا يريد ضابط المباحـث منـه؟!... ولمـاذا هـو بالذات؟... وهو لا صلة له بأية مشكلة، وليست له خصـومات مـع

أحد. وصلوا إلى القسم فأوقف حافظ العربة بجوار الرصيف وتركها مع صابر. دخل خلف الرجل وساقاه تحملانه بصعوبة مـن فـرط الرعب. وصلا إلى غرفة مغلقة يقف على بابها عسكرى يحرسـها. أسر الرجل بكلمات إلى العسكرى، لم يتبينها حـافظ. فـتح البـاب واختفى وراءه. عاد بعد قليل وسمح لهمـا بالـدخول. أدى الرجـل التحية العسكرية وقال للضابط:

- تمام يا أفندم... بتاع الروبابيكيا الساكن فى العشة.

أذن له الضابط بالانصراف وهو منهمك فى أوراق أمامه. استمر متجاهلاً وجود حافظ وناظراً إلى أوراقه ثم رفع رأسه فجأة وسـأل بلهجة صارمة:

- مع من من المسجلين تتعامل؟.

لم يفهم حافظ السؤال فتلعثم قائلاً:

- لا مؤاخذة يا حضرة الضابط، لم أفهم بالضبط.

رفع الضابط نبرة صوته صائحاً:

- نعم ياروح أمك!... هل تَدعى العبط؟!... اعترف أحسن لك. من تعرف من المسجلين خطراً؟.

ارتعش حافظ وهو يجيبه بصعوبة:

- لا أعرف أحداً يا حضرة الضابط... أنا رجـل فـى حـالى، استرزق من الروبابيكيا...

نهض الضابط من مقعده ودار حول المكتب وهو يتوعد حـافظ قائلاً وهو يرمقه بنظرة متوعدة:

- تكلم بالذوق أحسن لك... هم لا يتعاملون إلا مع أمثالكم.

وفى لمح البصر نزل بكفه على وجه حافظ وهو يقول متوعداً:

- من مِن اللصوص يبيع لك مسروقاته يا كلب يا ابن الكلـب؟. سيكون آخر يوم فى عمرك اليوم لو لم تعترف بمن تتعامل معهم.

ارتج جسد حافظ على وقع الكف الذى ناله من الضابط. نزلـت دمعة من عينه وهو يقسم للضابط:

- والله العظيم أنا صادق يا أفندم. أنا لا أتعامل مـع لصـوص. زبائنى ناس كلهم محترمون زى سيادتك...

عند هذا الحد اندفع الضابط كالسيل العارم ضرباً وركـلاً فـى حافظ وهو يصرخ قائلاً:

- زى من يا خَول يا ابن الكلب!..

حاول حافظ أن يتفادى الضرب بيديه دون جدوى. نادى الضابط، بعد أن أنهكه الضرب، على العسكرى الواقف بالبـاب وقـال لـه غاضباً:

- خد الخَول دا... ارميه بالحجز.

سحب العسكرى حافظ المذهول من هول ما رأى وسمع. استسلم له وسار معه حتى وضعه بالحجز.

(٩)

فتح العسكرى باب الحجز ودفع حافظ إلى الداخل بغلظة ثم أغلق الباب. شعر حافظ بوحشة رغم امتلاء الحجز بآخرين غيره. تحسس وجهه بأسى وتلفت يستطلع المكان والناس. ملامح يائسة وأخرى متحفزة. لمح شابين يجلسان بأحد الأركان. كانا شابين هادئين، يرتدى أحدهما ملابس متسخة متهرئة. توسم فيهما المسالمة فتوجه إليهما. حياهما فأفسحا له مكاناً بينهما. لحظات استكشاف صامتة مرت بينهم قطعها أحد الشابين والذى يبدو عليه قدر من الاستنارة متسائلاً:

- ما هى تهمتك؟

- أنا بتاع روبابيكيا، استدعانى ضابط المباحث ليسألنى عمن أعرفهم من اللصوص المسجلين خطراً.

سأله الشاب الآخر ذو الملابس المتسخة والذى يبدو عليه التعب:

- وهل تعرف أحداً منهم؟

أجابه مستنكراً فى أسى:

- وما دخلى أنا باللصوص؟!...

علقَ الشاب الأول موضحاً:

- من المحتمل أنهم قد عرفوا من بعض اللصوص أنهم يبيعون المسروقات لتجار الروبابيكيا.

أوضح الشاب الآخر:

- للمسروقات تجار مخصوصون.

قال الشاب الأول:

- أو تكون فكرة قد جاءت للضابط فأراد اختبارها.

زفر حافظ زفرة ضيق وبدا عليه الأسى وهو يقول:

- حسبى الله ونعم الوكيل... لقد تركت العربة خارج القسـم... زمان صابر محتار!...

سأله الشاب الأول:

- ومن يكون صابر؟

- الحمار... اسمه صابر.

ابتسم الشاب الآخر وهو يقول:

- لقد عرفنا اسم الحمار قبل أن نعرف اسم صاحبه.

التفت حافظ إليهما وقد ارتسمت بسمة خافتة على وجهه المكفهر:

- لا مؤاخذة يا جماعة، الواحد عقله طار... أنا اسمى حافظ.

رد الشاب الأول:

- وأنا اسمى طارق والأخ اسمه على.

قلب حافظ نظره بينهما ثم سأل:

- وأنتما!... ماذا جاء بكما إلى هنا؟...

أجابه طارق أولاً:

- كنت عائداً بالليل فأمسكونى تحرياً.

- لماذا؟.

- الله أعلم!...

- وما صنعتك؟.

- خالى شُغل.

- سبحان الله. أليس لك صنعة؟.

- تركت المدرسة بعد سنة أولى إعدادى. رسبت فيها سنتين ولم يقدر أبى على مصاريف الدروس الخصوصية والمجموعات. أبـى يعمل فى مقهى صغير ولى خمسة إخوة وأخوات.

سأله حافظ بدهشة:

- ألم تعمل منذ تركت المدرسة؟!

- عملت فراشاً بمركز خدمة سيارات بمصر القديمة.

- ولماذا تركت الخدمة؟

- رفدونى... ذهبت متأخراً عن مواعيد العمل.

تساءل حافظ:

- وهل يرفدون من يتأخر عن مواعيد العمل، ألم يسألوك عـن الظروف؟

- سألونى وقلت لهم بصراحة؟

- ماذا قلت؟

- إنى كنت زهقاناً وخُلقى ضيق. لم يكن عندى رغبة فى الذهاب للشغل فى ذلك اليوم. وسط النهار، استطعت أن أضغط على نَفْسى وذهبت للشغل، وصلت بعد الظهر.

ضحك على وهو يخبط كفاً بكف وعلق قائلاً:

- حلوة دى... الواحد يقول لصاحب الشغل مزاجى ليس على ما يرام!... هل تظن نفسك خبيراً يا عم طارق؟!...

تساءل طارق:

- أليس من حق الإنسان أن يكون مزاجه متعكراً؟..

أجاب حافظ بنبرة فيها بعض الحيرة:

- طبعاً... من حق كل إنسان أن يشعر بالضيق...

قاطعه على:

- لكن لا يجب أن يقولها بصراحة. الناس لا تقبل الصراحة، خاصة من الفقير... لابد أن يكون الفقير خانعاً وصامتاً وزى الساعة... لا يعطل ولا يمل... لا يشكو ولا يطلب... يكون خاضعاً دائماً ويحمل الجميل للصغير والكبير... لا يجب أن يسبب وجع دماغ لأولاد الناس... يعنى ماكينة وتعمل بهدوء...

التفت حافظ إلى على وسأله:

- وأنت، ما الذى جاء بك إلى الحجز؟

- سرقت سلسلة واحدة ست. كانت جالسة فى سيارتها فسألتها حسنة. لم تعطنى ولمحت سلسلة ذهبية برقبتها. شعرت بالغيظ،

خاصة وأننى لم آكل منذ الأمس. خطفت السلسلة وجريـت لكنهـا صرخت وقالت حرامى... أمسك بى البواب الذى كان قادمـاً فـى مواجهتى.

هز حافظ رأسه متأسياً وتساءل:

- ولماذا السرقة؟!.

- كنت جوعاناً... بحثت فى صناديق الزبالة فلم أجد شيئاً يؤكل. بطنى قرصتنى.

- وأهلك؟!...

- ليس لى أهل... أعيش فى الشارع.

- كيف تعيش فى الشارع؟!

- يا عم... أنت نايم فى العسل... نصـف أولاد وبنـات البلـد يعيشون فى الشوارع...

الحديث بينهم سرى عنهم ورطب قسوة الحدث والظروف.

(١٠)

انقبض قلب صابر عندما طال عليه الوقت وهو واقف بالعربـة أمام القسم يتململ منسياً. تحير!.. أين ذهب حافظ؟ ماذا يفعـل كـل ذلك الوقت؟.. نهق نهقة فيها من الحيرة والأسى ما فيها. فاض بـه الكيل فقرر اللجوء إلى نديم بالكشك. يعرف أن نديم يحب حافظ، كما

أن حافظ يأنس لنديم ويلجأ إليه فى ضائقته. توكل على الله وتحـرك بالعربة... سار مطأطئاً رأسه وتوجه صوب الكشك.

كان نديم جالساً داخل الكشك يتصفح الجورنال ويتأهـب لحـل الكلمات المتقاطعة. تعود نديم أن يقرأ الجورنال بعد تناول غدائـه، وأن يترك الكلمات المتقاطعة للمساء، ليتغلب بذلك على ملل الحبس فى الكشك طول النهار. سمع صـوت صـابر آتيـاً علـى البعـد كالمستغيث. رفع رأسه عن الجورنال وهاله أن يرى صابر قادمـاً وحيداً بالعربة... اللهم اجعله خيراً... أين راح حـافظ؟!... كيـف يجىء صابر بمفرده بالعربة؟!... هل حدث له مكـروه؟!... خـرج مسرعاً يستطلع الأمر، لكنه توقف مصدوماً... كيف سـيعرف مـن صابر؟!... حقيقى أن حافظ يدعى محادثة صابر له، لكنه كـلام لا يدخل العقل... ما العمل فى هذه الورطة؟!... أحسن حاجة سـأقفل الكشك وأذهب مع صابر إلى صفية فى العِشة، لعلها تـدلنى علـى الموضوع أو تنير لى الأمر... لكنها ستصدم إذا كانت لا تعلـم!... ليس هذا وقتاً للتردد... المهم أن نلحق بحافظ خوفاً من أن يكون فى خطر أو ورطة... اللهم اجعله خيراً...

أغلق نديم الكشك بالقفل وقفز فوق العربة، قال لصابر وهو يأمل أن يفهمه:

- هيا بنا يا صابر... لنذهب إلى صفية بالعِشة.

(١١)

فى العِشة، رقعت صفية بالصوت وهى تخبط صدرها وتقول:

- يا مصيبتى يا أولاد!... أين راح الرجل؟!... يارب سلم...

قال لها نديم:

- اهدئى يا صفية الله لا يسيئك... لازم نفكـر بالراحـة، أيـن سنبحث عنه؟...

مسحت دموعها بطرحتها وقالت بعد لحظة حيرة:

- نطلب من صابر أن يأخذنا إلى حيث تركه حافظ، بعدها نسأل فى القسم أو... لا قدر الله فى المستشفيات.

- وهل سيعرف صابر؟!

- طبعاً ياسى نديم... صابر قلبه دليله.

قفزا فوق العربة ومعهما يوسف على حِجر صفية وأمسك نـديم باللجام قائلاً لصابر برجاء:

- خدنا يا صابر حيث تركك حافظ... ركز الله يسترك.

أومأ صابر بهزات خفيفة من رأسه وانطلـق يـرمح مخترقـاً شوارع مصر الجديدة فى طريقه إلى القسم.

وقف صابر أمام القسم. قفز نديم من فوق العربة وقال لصفية:

- انتظرينى أنت وصابر حتى أستعلم عن حافظ.

عرف نديم بعد الاستعلام فى القسم، أن حافظ محجـوز لحـين العرض على النيابة... ما الموضوع؟!... ما السبب؟!... لـم يغثـه أحد... دخل إلى الضابط النوبتچى وكلمه بالأصول فكاد يحجزه هو الآخر... خرج مذهولاً يخبط كفاً بكف وهو يشعر بغيظ شديد.

وقفا أمام القسم يتدبران الأمر فيما بينهما. قالت له صفية:

- سأذهب إلى عم مرزوق الخضرى... أشاوره فى الأمر.

- وأنا سأذهب للدكتور حلمى. رجل طيب وخدوم ويسكن فـى العمارة المجاورة للكشك.

(١٢)

شكت صفية مصيبتها إلى عم مرزوق الخضرى لعله يغيثها بأحد من زبائنه الأكابر. سرح عم مرزوق بفكره والغم باد على قسـمات وجهه. تهللت أساريره فجأة وقال لها:

- الست سميرة زيونتى، زوجها ضابط كبير بالداخلية، سـأذهب إليها حالاً، وربنا يعمل ما فيه الخير.

نادى على بلبل صبيه الذى يرسله إليها بالطلبات وذهب معه إلى منزلها القريب. انتظرته صفية أمام الدكان والقلق يعتصرها. عاد لها مبتهجاً بعد قليل وهو يقول:

- أعطيتها الاسم ووعدتنى بخروجه غداً صباحاً.

مرت على نديم فى طريق عودتها. أفادها بأنه تكلم مع الـدكتور حلمى ووعده خيراً. أبلغه أن أحد أطباء الداخلية المهمين صـديقه، فهو الذى يعالج المعتقلين بعد التعذيب. شكرته وعادت إلى عِشـتها مع صابر والولد.

قضت صفية ليلتها سهرانة ودمعتها على خَدها. وقـف صـابر حزيناً بركنه وجلست بالقرب منه المعزة سعدية وضلْمه القطة.

(١٣)

فى الصباح الباكر، امتطت صفية ويوسف العربة وتحرك بهمـا صابر صوب نديم فى الكشك بناء على طلبه وتشديده عليها قبـل أن تغادره بالأمس إلى عِشّتها. ذهبوا جميعاً إلى باب القسم ووقفوا أمامه ينتظرون الفرج.

عند انتصاف النهار، خرج إليهما حافظ وهما ينتظران على أحر من الجمر. كان منكسراً. تهلل لرؤيتهما لكنه سـرعان مـا عـاود الصمت والسرحان. الشعور بالظلم يقصم الظهر.

قالت له صفية مهونة عليه:

- الحمد لله إن الواسطة نفعت.

حكت له لجوءهما إلى عم مرزوق الخضرى والـدكتور حلمـى وحمدت ربها مراراً على أنه أرشدهم إلى من يتوسط لهم... نعم... فمن ليس له ظهر ينضرب على بطنه!...

مروا على عم مرزوق لشكره أولاً ثم أنزلوا نديم أمام الكشـك. أصر على أن يشربوا الكازوزة حلاوة سلامة حافظ، توجهوا بعـدها إلى العِشة مهدودين.

(١٤)

قبل أن يصلوا إلى العشة هتفت صفية:

- لازم نحتفل برجوعك بالسلامة. سنمر على عم على الجـزار لشراء كيلو لحم. عرجوا على عم على الجزار واشتروا كيلو لحـم كندوز ثم عادوا إلى العِشة.

فك حافظ صابر من العربة وتوجهـت صـفية إلـى الوابـور البريموس فأشعلته بعد تسليك الفونية بإبرة الوابور جيـداً. أعـدت الخضار واللحم ورفعتهما على النار ثم انشـغلت بتنظيـف العِشـة وترويقها فى انتظار نضج الأكل.

حضرت الغداء وجلسا يأكلان بعد أن وضعت الأكل أيضاً لصابر وسعدية وضلْمة. أخذت صفية تُهون على حافظ الأمر وتحـاول أن ترسم الضحكة على وجهه حتى يفُك من ضيقه.

قالت له وهى تربت عليه:

- الحمد لله... إذا اشتد الكرب هان.

قال لها بأسى:

- ماقدروش على الحمار اتشطروا ع البردعة!... يلمون الناس عاطل فى باطل... وبهدلة وقلة أدب...

- ربنا ع المفترى...

- إمتى بس!...

- كل شىء بأوان.

أمضيا بعد الظهر يتسامران حتى حل المغرب. كان حـافظ قـد تخفف بعض الشىء من همومه. قال لصفية:

- سأخرج للتمشية قليلاً... أريد أن أشم الهوا.

- على راحتك يا خويا... وأنا سأرضع يوسف وسأنام. النهـار كان طويلاً.

خرج حافظ وابتعد فى الخلاء وهو يدس كفيه فى جيبى الجلابية ويسير متهادياً. سار طويلاً حتى شعر بقدر من السكينة، تمتم وهـو عائد إلى العِشة:

- يا ظالم لك يوم...

رحب به صابر بنهقة خافتة. بحث عن صفية ويوسف فوجدهما نائمين نوماً عميقاً. استدار وأشعل الوابور البريموس ثم وضع إبريق الشاى عليه. صب لنفسه كوب شاى وجلس يرتشف بهـدوء وسـط سكينة الليل. بينما هو سارح فى أفكاره جاءه صوت خافت يقول:

- هون عليك يا عم حافظ... البلاوى كتيـرة والحمـد لله أنهـا جاءت سليمة.

تلفت حوله منتبهاً. شعر أن الصوت يأتيه من ناحية صابر.

- من هناك؟!...

- أنا صابر يا عم حافظ... حمدالله على سلامتك... ألـم تكـن معتاداً أن تغنى أغنية... إوعى تفكر فى اللى جرى لك!...

ابتسم حافظ وتمتم:

- هل تريدنى أن أنسى الدنيا وأريح بالى!...

- أريدك ألا تفكر فى اللى جرى لك... خسارة العمر يروح فى الأحزان... حادثة ومرتْ...

- الظلم فظيع يا صابر...

- الحزن لن يرفع الظلم...

- وكيف يزول الظلم؟!...

- بالقوة... أو الحكمة... إن لم نقدر على الثورة فلنتسلح بالحكمة حتى تتهيأ الظروف. يعنى نتدبر أمرنا بالهدوء وبالعقل... الإنسـان يحزن على فقدان عزيز عليه...

- ألا يمكن أن يحزن أيضاً على فساد الحال؟

- هذا حزن فى غير محله... اعقِلها وتوكل...

- وماذا لو لم نتوفق فى واسطة كهذه؟

- كل عقدة ولها حلال... لا تنس أن الواسطة قد تودى ببـريء تماماً كما يمكن أن تُخلص المجرم.

- ماذا تغنى؟!

- أعنى أن الواسطة يمكن أيضاً أن تودى بـك فـى ظـروف أخرى، إذا اختلف معك أحد له ظهر ومسنود، حتى ولو كان علـى باطل... يعنى لا تنشغل كثيراً بحكاية الواسطة.

- لكنى حزين على أحوالنا...

- حطّ قبل ما تتعب... وشيل قبل ما تستريح... وقّـر جهـدك للصالح... والمفيد...

ران الصمت حولهما وحافظ سارح بفكره فى فسـاد الأحـوال. سحب كتاباً صغيراً من كومة الروبابيكيا التى يحتفظ بها. قلّبه علـى ضوء القمر وتصفح الصور التى ببعض صفحاته... وضعه جانبـاً وقد أضمر شيئاً فى نفسه للغد.

(١٥)

فى الصباح، ربط صابر بالعربة وتحرك متوجهـاً إلـى نـديم بالكشك. كان نديم يرص صناديق الكازوزة أمام الكشك إلى جـوار ثلاجة المشروبات.

- يا صباح الفل ياسى نديم.

- صباح الورد يا حافظ.

- قصدتك اليوم فى خدمة.

- تفضل... خير!...

- أريدك أن تعلمنى القراءة والكتابة.

- بسيطة، مادمت انتويت، لكن كيف جاءتك الفكرة، ومتى؟.

- الفكرة تراودنى منذ مدة. عندما يبيعنى بعض النـاس الكتـب القديمة وأراك مهتماً بفحصها ومراجعتها، أتمنى أن أعرف المكتوب فيها. عندما أعود للعشة، أفر فى الكتب التى لم تأخذها، أجـد فيهـا صوراً جميلة، صوراً لرجال ونساء، وأشـكال لا أفهمهـا. كـلام مكتوب أقف أمامه مثل طورالله فى برسيمه. بالأمس بعد رجـوعى من الحجز نويت أن أطلب منك أن تعلمنى القـراءة والكتابـة. لازم أتعلم بأى طريقة. هل كان الضابط سيعاملنى بهذه الطريقة لو كنـت متعلماً؟

- فكرة ممتازة. القراءة والكتابة ستنير طريقك.

- كما أنها شىء مقدس. ألم ترد فى القرآن، عندما خاطـب الله سبحانه وتعالى الرسول، عليه الصلاة والسلام، وقال له "اقرأ"... فى أول آية نزلت عليه.

- القرآن مقدس يا حافظ أى نعم، لكن ليست كل لفظـة ذكرهـا القرآن كذلك. ألم يذكر القرآن إبليس والكفـار؟!... القـراءة هامـة ومفيدة وتعلم الإنسان مالم يعلم، لكن لا يجب أن نتسـرع ونطلـق بسهولة كلمة "مقدس". المشكلة إن الناس تستسهل فى إطلاق القداسة عمال على بطال. القداسة للمقدس فعلاً.

صمت حافظ وبدا عليه أنه يفكر فى كلام نديم.

قطع نديم الصمت قائلاً:

- سأُحضر لك كراسة وقلم رصاص وأستيكة وبراية. مر علـى باكر لنبدأ الشغل.

قفز حافظ فرحاً على العربة وهدهد صابر باللجام وهـو يقـول بامتنان:

- ربنا يخليك لى ياسى نديم.

انطلق بالعربة فرحاً وهو يغنى منتشياً... سالمة يا سلامة رجنـا وجينا بالسلامة... إيلى... بيكيا...

(١٦)

فى اليوم التالى، توجه حافظ فى الصباح الباكر إلى كُشك نـديم. قال لصفية بزهو قبل أن يغادر:

- اقعدى بالعافية... أنا رايح المدرسة.

ضحكت صفية من قلبها وهى تقول:

- بعد ما شاب ودوه الكُتّاب!...

كان قد حكى لها عن رغبته فى التعلم وطلبه ذلـك مـن نـديم. ضحكت وقالت له:

- الله يجازى شيطانك يا حافظ... عليك أفكار!

وجد نديم قد جهز له الكراسة والأدوات كما وعده. كتب له اسمه على الكراسة ثم فتح أول صفحة وكتب له بخط كبير:

أنـــا إســـــــمى حـــافـظ

وبدأ يشرح له الحروف وهو يقرأ الجملة بصوت عالٍ. طلب منه أن يردد الجملة خلفه عشر مرات وهو يتابع الحروف بعينيه، أوصاه بالمجىء فى اليوم التالى وقد ملأ الصفحة وحفظ الجملة.

أخذ حافظ الكراسة والقلم باهتمام ووضع الأستيكة والبراية فـى جيبه حتى لاتضعيا منه. عزم أمره على أن يعود يومها مبكراً إلـى العشة لعمل الواجب.

(١٧)

سالمة يا سلامة رجنا وجينا بالسلامة

- يا عم يا بتاع الروبابيكيا... اطلع...

بدأ حافظ ينعرف فى المنطقة التى يتجول بها ببتاع الروبابيكيـا المغنواتى... يسمعون... سالمة يا سلامة... فيعرفـون أنـه يمـر. أصبحت مرادفة لنداء الروبابيكيا الشهير... إيلى... بيكيا... صـعد حافظ إلى حيث نادته الست.

قالت له:

- خد ورق الجرانين الآن ومر على باكر فى نفـس الموعـد. عندى حاجات كثيرة سأحضرها لك، بشرط أن تثمنها بذمـة. أخـذ حافظ الجرانين القديمة ودفع لها قيمتها وهو يأمل خيراً فى بضـاعة الغد... عزم أمره على أن يحضِر كل ما معه من فلوس فى العشة، حتى لا تضيع عليه فرصة شراء أية لقطة تعرضها عليه الست.

نزل حافظ من عند الست ووضع الجرانين فى العربة، قفز عليها بخفة فتحرك صابر من تلقاء نفسه. أصبح يفهمه جيداً، متى يريده أن يمشى ومتى يريده أن يقف، بدون الحاجة إلى تنبيهه باللجـام فـى معظم الأوقات. ساعد ذلك على التأكيد لحافظ أن صابر يفهـم كـل حاجة، وأنه هو فعلاً الذى يكلمه بالليل، إذا كان مزاجه رائقاً، نعم... ومن قال إن الحيوان لا يفهم؟!... ألا يدربونه ويعلمونـه؟!... بـل ويعتمدون عليه أحياناً، مثلما يحدث مع كلاب الحراسة أو الصـيد، وأيضاً فى كشف المجرمين. ألا يقولون أيضاً إن الـدرفيل صـديق الإنسان وينقذه إذا تعرض للغرق... وغيره كثيـر... الحكايـات لا تنتهى...

تهادت العربة بحافظ بلا وجهة بعينها. مر على الخالة عزيـزة، المقيمة فى الشارع منذ زمن بجوار الجنينة. حياها وهو بمحاذاتهـا وسألها:

- يلزمك حاجة يا خالة عزيزة؟...

أجابته برضا:

- ربنا يخليك يا ابنى... مستورة والحمدلله...

ضحك فى سره وقال متعجباً:

- مستورة إيه يا خالة عزيزة!... وكيف تكون غيـر مسـتورة بذمتك؟!... صحيح... الغِنى... غِنى النَفْس.

الخالة عزيزة تعيش فى الشارع ولا يعرف لها ناس ولا أهـل. شعر حافظ أن مزاجه لا يميل إلى الشغل فى ذلك اليوم. تحدث لـه كثيراً... تذكر طارق، الشاب الظريف زميل الزنزانة... ماذا تفعـل يا ولد يا حافظ؟!... هل تمر على قهوة الميدان لتشرب واحد شـاى كشرى؟... أم تُعدى على نوارة بائعة الفول فى الموقف؟!... قهـوة الميدان قريبة. أوقف صابر بالعربة على جانـب الطريـق ونـزل. رحب به كمال القهوجى. طلب منه واحد شاى كشرى وجلس خارج القهوة على أحد طاولات الرصيف يشم الهـواء ويتسـلى بحركـة الشارع.

جاء كمال بالصينية وهو يقلب الشاى بهمة وطرقات الملعقة على جدار الكوب الزجاجى تصدر إيقاعات راقصة مرحة تسيل اللعـاب. انشرح حافظ لرنين الشاى وهو يقترب نحوه وتتصاعد منه أبخـرة السخونة والطزاجة. شعر أنه يغنى مثلما ينفعـل هـو فـى معظـم الأحيان. من عادة حافظ أن يشَخص ويتسمع الموجودات من حوله، ليس فقط صابر وساعة الحائط، لكنها كم حـدثت لـه!... تتـأنس الحاجات من حوله ولا تلبث أن تتناجى معه... لذلك فهو يعتقـد أن

هذا يحدث للناس جميعاً، أو لابد أنه يحـدث، لكـنهم إمـا أنهـم لا يدركونه، أو يتغاضون عنه وسط هموم الحياة. من الوارد أيضاً أن يكونوا متهيبين من اتهامات الناس لهم بالجنون، كما يحـدث معـه أحياناً، فيخشون الإفصاح ويحتفظون بدواخل أنفسهم.

دخلت شلّة الكوتشينة إلى المقهى ودعت حافظ إلـى عشـرتين كوتشينة على المشاريب. حافظ يعز لعب الكوتشينة ويثيره المكسب، لكنه لا يحب الخسارة. قام وانضم إليهم ولعبـوا عشـرتين. كسـب حافظ ولم يدفع ثمن الشاى.

(١٨)

قبل أن ينام، تذكر حافظ المنبه القديم الذى استلقطه منذ بضـعة أيام من الست العايقة. يريد أن يصحو مبكراً ليذهب إلى الست التى طلبته ووعدته بتدبير بعض الحاجات له. قام إلى الدرج السرى الذى يخفيه تحت البضاعة، فتحه وعد الفلوس التى يحتفظ بها فيه، وجدها مائة وثلاثة وثمانين جنيهاً، رأسماله فى الشغل الذى يديره. يشـترى الحاجات القديمة من البيوت ثم يبيعها بسوق باب الفتـوح. اطمـأن على الفلوس وقال لنفسه فضل من الله، سآخذ معى مائـة وسـبعين جنيهاً وأترك ثلاثة عشر لصفية والبيت.

ضبط المنبه أبوطاسة على الساعة السابعة صباحاً ودخل لينـام إلى جوار صفية والولد. راح فى نوم عميق وحلم بـالقهوة وشِـلّة الكوتشينة، ثم رأى نوارة بائعة الفول وهى تنادى عليه من بلكونـة بيت فخم... اطلع يا حافظ... عندى روبابيكيا... طلع عندها فدعتـه إلى واحد شاى كشرى. كانت بمفردها فى المنزل، تلبس جلباباً نظيفاً مكوياً وقد ضفرت شعرها ضفيرة طويلة تصل إلى ما تحت وسطها. قالت له بدلال بعد أن شربا الشاى... نِفسى أعيش معاك يا حافظ فى جزيرة وحدنا. انخلع قلبه ويرطع فى صدره. استيقظ على صـيحة صفية فزعة وهى تسأله:

- ما هذا الصوت الذى يرن يا حافظ... يا ساتر يارب!...

تقلب حافظ فى الفراش منتبهاً وقال لها:

- دا المنبه أبوطاسة... باعته لى واحدة ست من كـم يـوم... أعجبنى فدسسته على جنب وضبطتُه البارح ليوقظنا فى الصباح.

ابتسمت صفية وزغدته برفق وهى تقول:

- الله يجازى شيطانك يا حـافظ... يعنـى كامـل الأوصـاف ياخويا... طيب نورنى... قومتنى من النوم مفزوعة...

تناولا إفطارهما ووضعت صفية الأكل لصابر. حلبـت سـعدية ووضعت بعض الحليب لضلْمة ثم أعطت الباقى ليوسـف. أخـذت عربتها بعد ذلك وخرجت تسعى على رزقها، هى والولـد. بعـد أن أنهى صابر إفطاره، استعد حافظ للخروج. أخذ الفلوس وعدها مـرة

أخرى ثم وضعها فى المحفظة الجلديـة. دسـها بعـد أن انتفخـت بالفلوس فى صدره بجيب الصديرى. أخذ صابر وربطه فى العربـة ثم توكل على الله وتحرك متجهاً إلى بيت الست إياها.

اقترب من العمار ودخل فيه... سالمة يا سلامة... آه يا سالمة يا سلامة... كان فَرِحاً للشروة المنتظرة... بينما هو منهمك فى الغناء بسلطنة، خَلعت كتفه سحبة قوية من ذراعه جاءت من خلفه وأوقعته من فوق العربة.

- طَلع الفلوس اللّى معالك... هيا بسرعة.

أفاق حافظ من الصدمة على شابين يواجهانه، يمسـك أحـدهما بمطواة قرن غزال ويهدده بها. تلفت حوله فوجد الشارع مهجـوراً وليس به صريخ ابن يومين. فكر للوهلة الأولى فى الاستغاثة، لكنـه تراجع عندما قّلب الأمر بسرعة فى عقله.

- قلت لك طَلع الفلوس أحسن لك.

توجس حافظ من منظر الشابين. يرتديان حقاً ملابس الأفنديـة، لكن ملامحهما لا تشى بخير. عينان حمراوان وجفنان مهدلان مـع عصبية بادية ونفاد صبر. عزم أمره علـى الاستسـلام. الشـيطان شاطر والسلاح يمكن أن يطول. مد يده المرتجفة باستسلام وأخـرج المحفظة المربوطة بدوبارة إلى جيب الصديرى. فتحها وأعطاهم ما بها من سكات. أخذا الفلوس وانطلقا فى أحد الشوارع الجانبيـة ثـم

اختفيا عن أنظاره وهو واجم مما حدث. نظر إلى صابر فى أسى ثم صعد إلى العربة بتثاقل.

قال لصابر وهو يشعر بالإحباط والعجز:

- لنَعد إلى العشة يا صابر... ربنا لم يقسم لنا بالبيعة.

(١٩)

قبل أن تتحرك العربة، غَير رأيه وقرر المرور على نديم. يشعر بالاختناق ويحتاج إلى الفضفضة. توجه إلى الكشك وهو يحث صابر على الإسراع. كان نديم واقفاً أمام الكشك يرتـب الحلويـات علـى حامل شباك الكشك. أوقف العربة ونزل والضيق باديٍ على ملامحـه. قال لنديم:

- أعطنى زجاجة كازوزة ياسى نديم الله يسترها معك.

تعجب نديم لسحنة حافظ المقلوبة، سأله بقلق:

- خير يا حافظ... ماذا بك؟!...

- أولاد الحرام ياسى نديم لم يتركوا لأولاد الحلال حاجة. طلـع على اثنان من الشبان وهددانى بالمطواة. سرقا ما معى من فلـوس وهربا.

ألجمت المفاجأة نديم. التقط أنفاسه ودار حول الكشـك. سـحب الكرسى من الداخل وقدمه لحافظ مواسياً وهو يقول:

- اقعد لتستريح أولاً... فهمنى، كيف حدث ذلك؟!...

استدار وأخرج زجاجة كازوزة من الثلاجة، فتحها وقدمها له.

عب حافظ من الزجاجة ثم تجشأ وقال:

- تماماً كما أخبرتك.

- ألم يوجد من يغيثك؟

- الشارع كان مهجوراً.

- وكيف كانا يبدوان؟!

- كانا شابين فى ملابس أفرنجيـة، قمـيص وبنطلـون، لكـن ملامحهما بدت كالمخدرين، عيونهما حمراء وأجفانهما متهدلة، فـى الحقيقة خفت منهما عندما صوبا المطواة ناحيتى وهما علـى هـذه الهيئة.

- لابد أنهما مدمنان... مصيبة والله... الإدمـان انتشـر بـين الشباب وأصبحوا يتجاسرون على أى شىء من أجل الكيف.

هز حافظ رأسه وتساءل بأسى:

- ماذا حدث للدنيا؟!...

- الشباب ضائع يا حافظ... يأس وبطالة.

- ولماذا لا يعملون؟!... لا ياسى نديم... دى قلة أدب.

عب حافظ بقية الزجاجة وقام ليضعها فى الصندوق الفارغ. عاد وأكمل:

- من يريد أن يعيش شريفاً فليسع إلى أكل عيشه. العمل لـيس عيباً مهما كان.

- المسألة ليست بهذه البساطة يا حافظ... لا توجد وظائف كافية وليس كل شاب مؤهلاً للقيام بأى عمـل. الشـباب يتعلمـون فـى المدارس ولا يملكون صنعة يأكلون منها عيشاً.

- هذا كلام لا يدخل مخى ياسى نديم... هل معقول أن يسـرق الواحد عندما لا يجد شغلاً؟!...

- هل نسيت يا حافظ ما حكيته لى عن زميلك فى الحجز الـذى سرق السلسلة... ألم تكن متعاطفاً معه وقلت إنه بدون أهـل وكـان جائعاً؟!... أم أنك غيرت رأيك هذه المرة لأنك أنت المضرور؟...

صمت حافظ وتوقف عن المجادلة. بدت على وجهه ملامح حيرة ممزوجة بضيق وعجز.

سأله نديم:

- كم كان معك؟

- كان معى مائة وسبعون جنيهاً. كنت ذاهباً لمصلحة فيها لقمـة عيش وأخذت كل ما كان معى بالعشة.

- وهل أخذا المبلغ كله؟

- نعم... كانا يهددانى بالمطواة.

هز نديم رأسه فى أسى ثم قال لحافظ بعد برهة تفكير:

- معى مائة وخمسون جنيهاً لا أحتاجها. خذها الآن لتدبر حالك.

- لا ياسى نديم... لا أريد ان أثقل عليك.

نهره نديم قائلاً:

- عيب يا حافظ... قلت لك خذها، صرف بها نفسـك إلـى أن تتيسر الأحوال.

نهض بلا تردد ودخل إلى الكشك ثم عاد بعـد برهـة بـالمبلغ وأعطاه لحافظ. مد حافظ يده محرجاً وأخذ المبلغ وهو يلهج بالدعاء لنديم. قرر أن يطلب من صفية أن تحيك له جيباً سحرياً بالصديرى، سيقسم الفلوس التى معه بحيث يضع مبلغاً صغيراً بالمحفظة والباقى فى الجيب السحرى... من يدرى؟!... شح الأمان فى البلـد وأولاد الحرام كثيرون.

نهض متثاقلاً بعدما شكر نديم من قلبه. أخـذ عربتـه وتحـرك متوجهاً إلى الست التى كان قد واعدها منذ الأمس لمعاينة ما أعدتـه له، لعل الله يعوضه عما ضاع منه غـدراً بسـبب الملاعـين أولاد الحرام.

(٢٠)

كان قد تأخر عن الست فقالت له معاتبة:

- لماذا تأخرت؟!... لم أشأ أن أنادى على أحدٍ غيرك من بتـوع الروبابيكيا...

حكى لها ما حدث فأسفت كثيراً ورق قلبها له. أحضرت له مـا أرادت بيعه. فونوغراف قديم له بوق كبير ومانافيلا. فرح حافظ جداً لمرآه وقال فى سره... هذا ليس للبيع، سأحتفظ به بجـوار سـاعة الحائط... أحضرت له أيضاً طبلية خشبية وكرسيى مطبخ صغيرين للطبلية... قال الله... وهذه أيضاً لأكلنا أنا وصفية والأولاد عنـدما يكبرون... منظرها قيمة وتسعنا جميعاً... أعطته تشكيلة لا بأس بها من البضاعة وفى النهاية أحضرت له بعض الكتب القديمة ثم قالـت له بثقة... ها... أفصل وأرنى شطارتك...

سألها باهتمام:

- ألا يوجد اسطوانات مع الفونوغراف؟.

أجابته متعجبة:

- وهل تنوى تشغيله؟!...

قال لها متصنعا الخبرة:

- حتى يكون كاملاً عند بيعه... فونوغراف باسطواناته.

قالت له:

- كان يوجد معه بعض الاسطوانات، لكنهم غائبون عن عينـى. مر بعد يومين وسأبحث لك عنهم.

تساهلت معه الست فى المليغ الذى وافقت عليه نظير البضـاعة مراعاة لحاله وما حدث له من سرقة فى ذلك الصباح... تمنى لهـا الستر والصحة ثم انهمك فى إنزال البضاعة على دفعـات. وضـع

الفونوغراف إلى جواره ووجه البوق إلى أعلى ثم انطلق منسجماً... وسالمة يا سلامة... آه يا سالمة يا سلامة...

(٢١)

إيلى... بيكيا... تهادى صـابر بالعربـة يحمـل حـافظ ورزق الصباح وقد أطربه غناء حافظ بعد الفصل السخيف الذى فاجأهما فى أول النهار... بدت ملامح الرضا على وجه حافظ... هو كـذلك... ينسى الهموم سريعاً ويتوكل على الله... بدا اليوم من أوله لا يسر... ثم... سلفة نديم ومواساته له... وقفة الصاحب كما يجب أن تكـون فى وقت الشدة... وبيعة اليوم التى أكرمنا الله فيها... ويا سلام على الفونوغراف... طول عمرى أحلم به... أسمع عليه أغانى زمان... وأغنى معاه... الشيخ سيد درويش ومحمد عبد الوهاب... صـحيح على رأى المثل... ربنا يقفل باب يفتح شباك... الحياة فيها الحلـوة والمرة... ناس تأخذ وناس تعطـى... صـفية سـتفرح بالطبليـة والكراسى... سأطلب منها أن تطبخ لنا لقمة حلوة احتفالاً بالطبلية... نتعشى عليها ونقعد حولها نتحدث فى أمور الـدنيا ونحـن نشـرب الشاى.

(٢٢)

بعد واقعة تعرضه للسرقة من الشابين وإقراض نديم لـه، عـزم أمره على التصرف فى بعض البضائع بالبيع ليسدد ديونـه. حمـل العربة جيداً وانطلق إلى سوق باب الفتوح، الذى تباع فيه كـل مـا تلفظه البلد من أحشائها. عرض بضاعته وفصل فيها ثم باع وقبض المقابل. عاد إلى مصر الجديدة، قبل أن يتوجه إلى العشة، مر على نديم وسدد ديونه على داير مليم وهو يحمد ربنا على الستر. اشترى حتة لحم من عم على الجزار ونصف كيلو حلاوة طحينية من عـم جرجس البقال وعاد إلى العشة لتطبخ لهما صفية عشوة معتبرة.

(٢٣)

تقدم حافظ فى تعلم القراءة والكتابة بسرعة أذهلت نديم وفرحته. كان حافظ يعمل واجباته بدأب، يكتب ما كتبه لـه نـديم فـى أول الصفحة وهو يتهجاه وينطقه بصوت مرتفع حتى يثبت فى دماغـه. تعلم كتابة اسمه واسم صفية ويوسف ونديم. طلب أيضاً من نديم أن يعلمه كتابة أسماء صابر وسعدية وضلْمه. تعلم كذلك كتابة أسـماء الأيام والشهور، طلب بعدها من نديم أن يعلمه كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، وانطلق بعدها فى التعلم. كان فى المساء يلتقط أحد الكتـب القديمة محاولاً أن يفك خطوطها، يتعثر فى البداية ثـم لا يلبـث أن يتبين كلمة أو كلمتين ينجح فى قراءتهما فيفرح ويقهقه طرباً وهـو يخبط ساقه بكفه متعجباً لقدرته التى اكتسبها... يحمد الله كثيـراً ولا ينسى فضل نديم عليه.

(٢٤)

حافظ يحب الحلاوة الطحينية، يأكل منها ولا يشبع. يحب أيضـاً عصير القصب والذرة المشوية والتين الشوكى والزبادى، إلى جانب العسل والطحينة. فى الشتاء يبحث عن القصب العيدان ويجلس فـى أوقات راحته على الرصيف فى الأيام المشمِسـة لـيمص القصـب بمزاج. يتعب فى الحصول على عيدان القصـب التـى أصـبحت شحيحة هذه الأيام، بعد أن كانت تملأ الدنيا أشكالاً وألواناً.

طبخت له صفية بامية ولحم وأرز. حافظ يحب أيضاً اللحم فـى البامية، أكلوا وشربوا وحلّوا بالحلاوة الطحينية احتفالاً بقطع الأثاث الجديدة التى أحضرها حافظ معه. أعجبت الطبلية صفية وطلبت من حافظ أن يثبت القرص جيداً فى الحامل حتى تتماسك الطبلية جيـداً ولا تهتز، خشية دلق الأكل وزروطة الدنيا.

قضت حتة حلاوة بعد الأكل. قامت صفية للنوم هى ويوسـف، أخذ حافظ الفاضل من الحلاوة وقام منتوياً قضاء الليلة فى الاستماع إلى الفونوغراف وهو يمزمِز بالحلاوة. تذكر فى آخـر لحظـة أن الست لم تعطه اسطوانات الفونوغراف فأصابه الإحباط. قرر أن يمر عليها فى الصباح ليذكرها بالاسطوانات وجلس فى ضوء القمر يأكل ما تبقى من الحلاوة ويدندن بما يرد على فكره من أغانٍ يحبها.

(٢٥)

فى الصباح، مر حافظ على الست فأعطتـه ثـلاث اسـطوانات متربة وقالت له:

- هذا كل ما وجدته.

شكرها من قلبه وحمل الاسطوانات بحرص وهو يخشى عليهـا أن يصيبها سوء أثناء النقل. فرش فوطة فى جانب العربة ووضـع الاسطوانات عليها برفق ثم غطاها بطرف الفوطة. تحرك بالعربـة ثم توقف فجأة وقال والانشغال بادٍ على وجهه:

- الأفضل أن أعود بالاسطوانات إلى العشة، أتركهم فيهـا ثـم أسعى على رزقى. أخشى عليها أن تنصاب أثناء الشُغل.

عاد إلى العشة، ترك الاسطوانات فى ركن البضاعة، وضـعها فوق الفونوغراف وألقى عليها غطاء من القماش لحمايتها... الكثيـر من خبرة حافظ استقاها من أفلام السينما. الفونوغراف والاسطوانات رآها كثيراً فى الأفلام القديمة التى يحبها.

(٢٦)

عاد فى المساء وهو عازم علـى قضـاء الليلـة فـى سـماع الاسطوانات التى أعطتها له الست فى الصباح. حضرت له صـفية العشاء، بقية البامية من البارح وحتة فطيرة مشلتتة، أعطتهـا لهـا الست أم وهيبة، بائعة الجبن القريش بسوق الجـامع، قالـت لهـا: جاءتنى زيارة من البلد. وأعطتها المشلتت وبرطمان قشطة فلاحـى

صغير وهى تبتسم وتقول... على ما قُسِم... لـم تشـاركه صـفية العشاء وقالت له... أشعر بمغص الليلة وسأنام خفيفة.

تعشى حافظ وحمد ربنا ودخلت صفية للنوم هـى والولـد. قـام حافظ بعد العشاء إلـى ركنـه وأنـزل الاسـطوانات مـن فـوق الفونوغراف. فتحه برفق واختار اسطوانة نفخ عنها التراب العـالق بها ثم وضعها على الفونوغراف. أمال الذراع الحامل للإبرة علـى الاسطوانة لكنها لم تتحرك. رفع الذراع مرة أخرى ثم أدار المانافيلا عدة مرات حتى قاومه ذراع المانافلة. بدأت الاسطوانة فى الدوران فأمال الذراع عليها مرة أخرى حتى لامست الإبرة الاسطوانة. سمع صوتاً يقول... إسطوانات بيضـافون تقـدم الأسـتاذ محمـد عبـد الوهاب... صفق بكفيه طرباً ثم انتبه لنوم صفية فأمسـك تحشـماً. جلس متسلطناً وهو يسمع عبد الوهاب يغنـى مريـت علـى بيـت الحبايب... تذكر نوارة... بائعة الفـول فـى موقـف الأتوبيسـات فارتسمت ابتسامة على وجهه. البنت حلوة وجذابـة وهـو معجـب بها... لكنها جادة وزى السيف... وفى النهاية هو متـزوج ويحـب صفية. فكر بعمق وتساءل... ترى هل يمكن أن يحب الواحد، اثنين نسوان فى نفس الوقت؟!... سرح بفكره ثم عاد وتساءل متحيـراً... وهل يمكن أن تحب الواحدة رجلين معاً؟!... يا عيب الشوم!... لكن ماذا كان سيفعل لو تجاوبت نوارة معه وأعطته ريق حلو... مـثلاً مثلاً يعنى...

فجأة وسط تأملاته سمع صفية ترقع بالصـوت... يـالهوتى... الحقنى يا حافظ... انتفض من مكانه واندفع إليها مهرولاً... خير يا صفية... الظاهر إن الطلق جاءنى... حاموت يا حـافظ... الوجـع جامد... اجر على الخالة خديجة الداية... قل لهـا صـفية جاءهـا الطلق... الحقيها بسرعة...

هرول حافظ تجاه صابر، سحبه وربطه فى العربة، عاد سـريعاً ولبس المركوب. قفز على العربة كالممسوس وانطلـق إلـى بيـت الخالة خديجة الداية، بيتها ولله الحمد ليس بعيداً. وصل حافظ إلـى البيت فقفز من فوق العربة وتوجه إلى شباك الست خديجـة التـى تسكن بالدور الأرضى، نقر عليه بحرج قِلِق ووقف ينتظـر وهـو يدعو لصفية أن تقوم بالسلامة من الولادة. فتحت الخالـة خديجـة ضلفة الشباك نصف فتحة وقالت... "مين"... وعيناها تقاومان النوم. قال لها... أنا حافظ يا خالة خديجة... الحقينا الله لا يسيئك... صفية باين عليها بتولد... جاءها الطلق فأيقظها من عِز النـوم. صـمتت للحظات تستوعب ما سمعت بين اليقظة والنعاس ثـم قالـت لـه... انتظرنى... سأنزل حالاً... اعملى لكِ همة الله يخليـكِ يـا خالـة خديجة... اطمئن.

نزلت الخالة خديجة وهى تنفض النعاس عنها. مد لها حافظ يـده وعاونها لارتقاء العربة. الخالة خديجة سمينة وطلعت بمقعدتها على طرف العربة بالضالين. قفز حافظ على العربـة وقـال لصـابر...

بسرعة والنبى على العشة. صابر لا يحتاج لوصية، انطلق يبرطـع بعزم ما فيه وولى شطر العشة وهو يشعر بمسئولية عن إيصـالهما بأسرع ما يمكن لإغاثة صفية الغلبانة.

دخلت الخالة خديجة على صفية وهى تئن فقالت لها... اهدئى يا صفية، ماذا جرى لكِ؟!... كل الستات يلدن من أيام أمنا حـواء... قولى يارب... التفتت إلى حافظ وسألته:

- هل تقدر أن تسخن لنا حلّة ماء؟

- طبعاً يا خالة خديجة... ثوانٍ...

أشعل الوابور البريموس وملأ الحلة بالماء. وضعها على الوابور وأخذ يذرع المكان قلقاً فى انتظار الفرج. أعطى حلة الماء السـاخن للخالة خديجة التى قالت له وهى تتلقاها منه:

- عن إذنك أنت الآن...

تراجع حافظ وتوجه إلى صابر المنتظر بهدوء. قال له برجاء:

- ادع لها يا صابر أن تقوم بالسلامة.

هيئ له أنه سمع تمتمة خافتة بدعاء حلو. قال بمودة:

- الله... أنا عارف!!... من أين تجيب هذا الكلام؟!...

لحظات مرت كدهر، سمع بعدها صوت الفرج يخترق صـمت الليل:

- واء... واء...

وكان أول نداء لوافد جديد إلى هذه الدنيا...

خفق قلب حافظ ووقف متوثباً، لا على حامى ولا عل ـى بـ ـارد، أطلت الخالة خديجة بعد لحظات من خلف حاجز النوم وقالت له:

- مبروك... جاءت لك سِرية... أخت ليوسف... ماذا ستسميها؟

- خير من عند ربنا... سأسميها خيرية... خيرية إن شاء الله يا خالة خديجة... طمئنينى على صفية...

- زى الفُل.

(٢٧)

تمت الولادة بسلام وشَرفت خيرية لتضيف نجمة جديدة فى سماء حياة حافظ وصفية. خطف حافظ رجله إلى الفرارجى القريب بميدان سانت فاطيما واشترى لها جوز فراخ. طلب من الفرارجى تنظيفهما جيداً لأن الست بعافية وخارجة من ولادة. هنأه الفرارجى وخصم له من الثمن تحية للمولود.

أخذ جوز الفراخ واستدار عائداً إلى العشة. فى طريق عودتـ ـه، لمح جرواً أبيض يقف بمفرده بجوار شجرة فى الطريق... يظهر أنه مولود حديثاً... يبدو عليه الوحدة والخوف... رق قلبه له... كلـ ـب مولود حديثاً مثل خيرية... ترى أين أمه؟!... وأين إخوته؟... هـ ـل حدث لهم مكروه؟... ماتت الأم أثناء الولادة مثلاً؟... أو صـ ـدمتها سيارة مسرعة من السيارات التى تجرى فى الشوارع كالمجانين؟... إخص عليكِ يا دنيا!... مخاليق لها بخت!... نحن نحتفـ ـل بخيريـ ـة

ونشيلها على كفوف الراحة، والكلب الصغير هذا يأتى إلـى الـدنيا وحيداً... لا يهتم به أحد!... أين العدل؟!...

توقف بالعربة وقال لصابر:

- انتظر يا صابر... الظاهر أن خيراً جاءنا... ولن نرفضه.

اتجه إلى الكلب الصغير الذى تراجع خطوة إلى الوراء وبدا عليه الخوف عندما مد حافظ يديه إليه... حمله برفق وربت عليه... قبله من جسده المنتفض النحيل... كلب أبـيض جميـل... تـرى مـاذا نسميه؟... سآخذه معى... أخ لخيرية... مولود معها ويتربى معها... فلنسمه على مقام لونه الأبيض... ماذا تحـب يـا حـافظ ولونـه أبيض؟!... الأرز باللبن!... وهل معقول أن أسميه رز بلبن... اسم طويل... شُفْ اسم ثانى... قشطة!... زبادى!... أيوه زبادى... أنـا أحب الزبادى... وكمان خفيف على المعدة... سأسـميه زبـادى... وسيكون أخاً لخيرية... وليوسف وضلْمة... هيا بنا يا عم زبادى... حادى بادى... كرنب زبادى... سلم على عمك صابر يـا ولـد... ربحب به يا صابر... العائلة كبرت وربنا رزقنا بالجوز... خيريـة وزبادى.

(٢٨)

وصل فرحاً إلى العشة. نزل من العربة ومعـه زبـادى ولفـة الفراخ، كل فى يد. نادى على صفية مبتهجاً:

- جاءنا ولد ثانٍ يا صفية...

دخل عليها وهى جالسة على الفرشة وخيريـة علـى صـدرها ترضع. نظرت إليه متعجبة وشهقت قائلة:

- يادى الخيبة يا حافظ!... ما هذا الذى فى يدك؟!... هل جئـت بكلب معك؟!... وماله صغير هكذا؟... يظهر أنه مولـود للتـو يـا ولداه... الله... شكله جميل قوى يا حافظ... بسم الله ما شاء الله...

- خَمّنى ماذا أسميته؟!... زبادى... وسنربيه مع خيرية ويوسف وسعدية وضلْمة.

أطلقت ضحكة مجلجلة:

- يخيبك يا حافظ... كلب واسمه زبادى!...

- أنت عارفة إنى أحب الزبادى... وهو لونه أبيض شقّ اللفت.

- خلاص... سمه شقّ اللفت...

- اسم طويل وماسخ... إنما زبادى!...

- طَيب يا خويا... تآليفك مالها نهاية!

- العيلة زادت اثنين.

- ربنا يزيد ويبارك.

وضع الكلب إلى جانبها وهو يقول:

- سأحضر له حبة لبن من سعدية.

- هل تعرف كيف تحلبها؟

- لا أريد إلا نقطتين... على قد زبادى... يا شيخة أنسـيتينى... خدى... فرختين... لازم تتغذى... أنت خارجة من ولادة ويلزمـك الغذاء...

أعطاها لفة الفراخ واستدار بنشاط ليحضر الحليب لزبادى.

(٢٩)

أيام معدودات واستردت صفية عافيتها بعد الولادة. عادت تراعى العشة والأولاد وتقوم بلوازمهم. لم تستطع طبعـاً أن تنـزل إلـى السوق، فهذا فوق الطاقة فى مثل ظروفها.

جلس حافظ بعد الظهر إلى الطبلية منهمكاً فى عمل الواجب الذى أعطاه له نديم. روتين جديد أصبح معتاداً عليه وسعيداً به. تقدم فـى القراءة والكتابة باطّراد وتحسن خطه بشكل ملحوظ. يكتـب اسـمه الآن بخط واضح مثل تلاميذ المدارس. عند مروره الصباحى علـى نديم، يبدآن بقراءة عناوين الجورنال ثم البخت. عرف حـافظ عـن الأبراج وحفظ برجه وبرج صفية ويوسف وخيرية، وبالطبع زبادى المولود فى نفس وقت ميلاد خيرية. تمنى أن يعرف بـرج صـابر وسعدية وضلْمة أيضاً حتى يطلب من نديم أن يقـرأ لهـم جميعـاً البخت، لكن ما باليد حيلة.

أحضرت له صفية كوب الشاى وجلست إلى جواره تؤنسه وهـو يعمل الواجب. لوحة بديعة لهما وخيرية على حِجر أمها بينما يذرع يوسف العشة زحفاً حولهما.

التفت إليها حافظ بغتة وقال بحماسة:

- على فكرة يا صفية... لازم نُعلم يوسف وخيريـة. لابـد أن يدخلا المدارس ويكملا حتى الجامعة.

ابتسمت صفية وقالت له:

- ربنا يعطيك وتنول مرادك.

- لكم أشعر بالندم على ما فات من عمرى دون تعليم.

- الندم لا يفيد مادمت تحاول. لا تنظر وراءك.

- كلامك حلو يا بنت الإيه.

- ولا حلو ولا حاجة، هو الكلام المعقول.

- ومن يفكر بالمعقول فى الزمان دا؟!

استمر حافظ يعمل بجد فى الواجب حتى حل الظلام.

سألته صفية:

- هل أُحضر العشاء؟

- يا سلام... أنا فعلاً جعت... كيف عرفتِ؟!

- قلب المؤمن دليله!... الليل دخل علينا يا حافظ!...

حضرت العشاء وفرشته على الطبلية بعد أن أخذ حافظ كراسـته ووضعها فى ركنه. كان العشاء باذنجاناً مقلياً معه حبة مش وجبنـة

قديمة. بعد العشاء أحضرت له طبق عسل وطحينة للتحلية ثم علقت على الشاى.

(٣٠)

شربا الشاى معاً وصفية تتثاءب من شدة النعاس. نهضت بعـدها للنوم هى والعيال. خرج حافظ ليتمشى قليلاً فى نسمة الليـل. ليلـة صافية ومقمرة جادت فيها السماء بنجومها. عاد بعد قليل إلى صابر وقال له بحيرة:

- النوم لا يجيئنى يا صابر.

هز صابر رأسه مواسياً، كأنه عالم بحاله.

كان حافظ قلقاً، معاشرته لزوجته مضطربة منذ فتـرة الحمـل، انقطعت تماماً فى نهايته، وهاهو مازال أمامه وقت حتـى تُـربِعن صفية ويفرجها ربنا بانتهاء فترة النِفاس.

- أتعرف يا صابر... سوف نمر غداً على نوارة فى الموقف... نِفسى آكل طبق فول من يديها... يا سلام... بنت زى القمر... وإلا البنت دلال... بائعة اليانصيب الملعونة... تشاغلنى عينى عينك وأنا حالتى كرب... أقاومها بالعافية... ويا سلام على الست التى باعتنى ساعة الحائط... مغرية بشكل!... الحالة أصبحت صـعبة... ربنـا يهون على صفية وتُربِعن... ستكون روحى قد طلعت!...

أخذ حافظ يذرع المكان رائحاً جائياً وهو يشبك كفيه خلف ظهره حائراً. تفتق ذهنه على أن يرش جسمه بكوزى ماء بارد حتى ينهـد وينام.

(٣١)

فى الصباح، سألته صفية وهو يستعد للخروج:

- هل أُحضر لك لقمة؟

- لا... نِفسى مسدودة... سآكل أى حاجة وسط النهار.

قفز على العربة وغمز بعينه لصابر...

انطلق فى اتجاه موقف الأتوبيس. بدأ قلبه فى الخفقان وتزايد مع اقترابه من الموقف. لمح نوارة واقفة كالبدر إلى جوار أبيهـا عـم جابر وهما منهمكان فى تحضير أطباق الفول والساندوتشـات لمـن يريد ومستعجل. أوقف حافظ العربة على مبعدة ونزل بهمة ولهفـة. حث السير إلى نَصبة الفول واستجمع شجاعته:

- صباح الخير يا عم جابر... صباح الفُلّ يا نوارة...

وقف بين الزبائن لا يدرى لماذا يشعر بأنه مفضوح... وماذا فيها يعنى؟!... زبون كأى زبون يجىء للإفطار... هكذا طمأن نفسـه... طلب طبق فول ووقف يرقب نوارة وهى تتحـرك كـالغزال خفـة وملاحة. وضعت نوارة طبق الفول أمامه وقَربت كومة خبز ناحيته.

وقف يخطِر بمزاج وهو يختلس النظرات إليها بين الحـين والحـين ويهز رأسه بلا معنى... لا يعـرف إن كـان تعجبـاً أم حسـرةً أم إعجاباً... أم ماذا بالضبط؟!... هى بنت بنـوت... وهـو متـزوج ويحب صفية... وربنا رزقه بعيلين زى الفل... هل هـى فراغـة عين؟... أم طمع؟... لكنها حلوة زى القمر... وهل سيطمع الإنسان فى كل واحدة حلوة يراها؟!... دا اسمه كلام؟!... لكـن البنـى آدم ضعيف... ريقه يجرى على أى واحدة حلوة...

تباطأ حافظ ما استطاع مستدفئاً بوجوده إلى جوار نوارة... لـو كان الواحد...؟! ... ما علينا...

أنهى طبقه فى النهاية ودفع. سلم وغادر النصبة وهو ينتزع نفسه من أمامها انتزاعاً.

(٣٢)

قفز فوق العربة ونظر نظرة أخيرة للوداع. هز اللجام فتحـرك صابر. تجشأ باستمتاع وقال لصابر:

- طبق فول زى اللوز يا صابر... يا سلام لـو تـذوق الفـول المدمس!... خاصة من يدى نوارة.

انطلق إلى بيت الأستاذ شفيق، فاليوم هو الأحد، موعد مـرور الأسبوعى عليه، كما طلب منه منذ عدة أسابيع. قال له، مر على كل أسبوع لأكون قد حضرت لك بعض الأشياء لتأخذها. يوم الأحد هو يوم إجازته الأسبوعية من عمله، حيث يمتلك محـلاً تجاريـاً لبيـع

الخردوات بسوق الجامع. الأستاذ شفيق أرمل، توفيت زوجته منـذ شهور، ما تعجب له حافظ، أنه بدأ فى ترتيب شقته استعداداً لـزواج جديد. يبيع معظم كراكيب البيت وحاجيات زوجته المتوفاة تمهيـداً لبياض الشقة وتوضيبها قبل شراء عفش العروسة الجديدة. فضفض الأستاذ شفيق لحافظ بمختصر لحكايته بعدما أنس إليه وطلـب منـه التردد عليه أسبوعياً ليأخذ ما فيه النصيب، مما يجمعـه لـه مـن حاجات البيت القديمة وذكريات المرحومة. قال له:

- باين عليك ابن حلال... أنا قلبى انفتح لك ولن أبيع شيئاً لأحد سواك.

لا يخدعنكم الكلام المزوق فالأستاذ شفيق ليس بسيطاً كمـا قـد يبدو، هو أيضاً تاجر فى السوق وجرب بعض بتوع الروبابيكيا قبل أن يستقر على حافظ، بعدما لاحظ أنه ليس جشعاً ويثّمن الحاجـات أفضل من غيره من أولاد الكار المتشطرين. مرة فمرة أنـس إليـه وبدأ يفضفض له ما فى قلبه، بتحفظ فى البداية، ثم تباسط معه بعـد ذلك.

الأستاذ شفيق، فيما يبدو، وحدانى ومقطوع من شجرة، قاطعـه أهل امرأته بعد وفاتها عندما علموا أنه سيتزوج من إحدى زبائنـه المترددات عليه فى محل الخردوات. قالوا له، إخص عليك، أتتزوج بمجرد وفاة المرحومة؟!... يا أخى اصبر قليلاً احترامـاً لـذكراها. مسكينة المرحومة، عاشت معه ما يزيد عن خمسة عشر عامـاً دون

أن يرزقها الله بالذرية. الحقيقة، الأستاذ شفيق تزوج فى سنٍ متأخرة، يعنى على كبر، وهى لم تكن صغيرة أيضاً، فقد كانت مناسبة له وتقترب من الأربعين. الأستاذ شفيق داخل الآن على الستين، لكنه بصحة جيدة، ولا يستطيع الاستغناء عن الست... هكذا يدعى لمن يتكلم معه فى موضوع الزواج... شىء جائز والله أعلم!...

تعود الأستاذ شفيق أن يدعو حافظ إلى الدخول بعدما أنس إليه. كان أيضاً يدعوه إلى كوب شاى يشربه معه، بينما يتفرج على الحاجات التى جمعها له. هى أيضاً فرصة لتجاذب أطراف الحديث. الناس جميعاً تحتاج إلى الكلام، إلى أذن تسمعها، خاصة إذا كانت وحيدة، أو منبوذة. تتنشق برجاء إلى من يستمع إليها، وكأنها تستمد منه الثقة بالدنيا وبالناس، أو تستجدى مصادقة على آمالها وأحزانها وهمومها. وقد تتناسى ذلك فى عنفوانها، أو فى خضم نجاحاتها، وبالطبع فى أزمان جبروتها وتَسلطها، لكنها تتحرق شوقاً للآخر، لأى رفيق يتقبل ويتفهم، حينما تجور عليها الأيام.

(٣٣)

دعاه الأستاذ شفيق إلى الدخول ثم استأذنه ليحضر له ما أعده من حاجات استغنى عنها. مر بالمطبخ فى طريقه فدخل ووضع إبريق الشاى على النار وهو يقول لحافظ بصوت يسمعه:

- سنشرب كوبين من الشاى معاً.

- لا لزوم للتعب يا أستاذ شفيق.

- أى تعب يا رجل!... كنت سأشـرب الشـاى قبـل مجيئـك، وسنشرب الشاى معاً... هل أنت بخيل... أم ماذا؟!...

- طيب يا عم شفيق... دايماً عامر.

دخل الأستاذ شفيق إلى غرفة النوم وعاد محملاً بكرتونة كبيرة، كان قد كوم فيها ما يريد التخلص منه. وضعها أمام حافظ وقال لـه وهو يستدير:

- تَفَرج على مهلك حتى أحضر الشاى.

تحشم حافظ أن يمد يده إلى الكرتونة قبل حضور الأستاذ شفيق. عاد بصينية الشاى وقدمها لحافظ قبل أن يأخذ كوبه. مـد الأسـتاذ شفيق يده وانتقى حقيبتى يد حريمى من الكرتونة. قـدمهما لحـافظ وهو يقول:

- هاتان الحقيبتان للمرحومة، جديدتان كما ترى، لم تسـتعملهما إلا مرات معدودات.. رحمها الله...

مد حافظ يده بتردد وخِل... هل سيأخذ حاجـات مـن رائحـة المرحومة؟!... لم يمهله الأستاذ شفيق وأكمل:

- كما قلت لك... فأنا على وشك الزواج... ولا يجـوز طبعـاً الإبقاء على أشياء كهذه بعد زواجى... مراعاة لشعور العروسـة... رغم أننى أفرط فى حاجات المرحومة على عينى...

قال ذلك وتصنع التأثر وهو يهز رأسه كالمتعجب لصروف الدهر. ارتبك حافظ ومد يده برهبة... لم يشأ أن يفتحهما ووضعهما إلى جانبه... أخرج له مرآة مستديرة صغيرة وقال له:

- هذه مرآة مكبرة... كانت الست، الله يرحمها، تستعملها فى تحفيف حواجبها... أشياء هامة للستات... هذه هدية منى لامرأتك.

أعوذ بالله... قالها حافظ فى سره... وهل سأعطى صفية حاجة المرحومة؟!... تشاءم من الفكرة لكنه طبعاً لم يعلق.

أخرج من الكرتونة ألبوم صور كبيراً وسأل حافظ:

- هل تأخذ ألبومات الصور؟

حافظ يحب الصور جداً... يأخذه طبعاً... فى الغالب لِنفسه ليتفرج عليه كلما عن له. مد يده وفتح الألبوم. تصفحه فوجد صوراً يبدو عليها القِدم... لونها قد أصفر وبهت.

سأل الأستاذ شفيق بفضول:

- صور من هذه؟!...

قال له الأستاذ شفيق وهو يقرب كوب الشاى من فمه:

- هذا ألبوم حماتى...

وشفط شفطة طويلة من كوب الشاى، قال بعدها:

- اشرب شايك يا رجل... سوف يبرد... وهذه أيضاً أجندة قديمة لحماتى... كانت وهى صغيرة تدرس فى مدرسة فرنسية بالإسكندرية... أصلها إسكندرانية، ستجد كتابة بالفرنسية بداخلها.

شرب حافظ الشاى وثّمن البضاعة وهو فَرح بألبوم صور حمـاة الأستاذ شفيق السابقة. دفع المبلغ وشكره داعياً لـه... ربنـا يـتمم بخير... حمل الكرتونة ونزل السلم وهو يقول متعجباً:

- رجل قارح بصحيح!...

(٣٤)

سألته صفية وهما جالسان على الطبلية يتعشيان:

- ألن نذهب لأمى لترى خيرية؟

- صحيح... لازم نروح للجماعة فى شبرامنت، وبعدها نـذهب إلى قها... أبى سيغضب لو تأخرنا.

- خلاص، الأسبوع دا نروح شبرامنت والأسبوع الجاى نـروح قها.

- ماشى كلامكِ يا صفية، حضرى زيارة للجماعة.

- لا أستطيع الذهاب إلى السوق الآن... عليك أنـت بتحضـير الزيارة.

أنهيا عشاءهما وشربا الشاى بعدها. شالت صفية بقايـا الأكـل وأخذت يوسف وخيرية معها وهى تقول لحافظ:

- تصبح على خير يا حافظ... حيلى مهدود وسندخل للنوم.

نهض حافظ وخرج من العشة ليتبول بعيداً. عاد بعـدها وهـو ينتوى التسلية بالفُرجة على الحاجات التى اشتراها فى الصباح مـن

الأستاذ شفيق. سحب الألبوم والأجندة من كومة البضائع وجلس على ضوء لمبة الجاز يتصفحهما.

لابد أن هذه الصورة فى أول الألبوم هى صورة حماته، مـادام الألبوم لحماته، ست كبيرة تجلس على الكرسى وهى ترتدى جلبـاب البيت وتربط رأسها بالمنديل... ابتسامتها حلوة!... وهذه صورة لها مع ناس آخرين... يبدون أصغر منها سناً، فى عمر أولادها. هـذه الست يمكن أن تكون زوجة الأستاذ شفيق، الله يرحمها، والرجلان، من يكونان يا ترى؟!... يمكن أن يكونا أخويها... الصـورة تبـدو صورة عائلية... وهذه الصورة القديمة!... لونها تغير من الزمن... نفس الملامح... صورة الفرح... عريس وعروسته... الله!... ألـم يكن من المفروض أن يعطى الألبوم لأهل امرأته؟!... صور لابد أن تكون عزيزة عليهم... لماذا تخلص من الألبوم وبه كل هذه الصور والذكريات؟!... هل لأن أهل امرأته قد قاطعوه؟... وافرض!... هل يفعل هذا نكاية بهم؟... إخص عليك يا شفيق الكلب!... رجل قلبـك أسود بصحيح... بل ليس لك قلب بالمرة... الناس تقضـى عمرهـا كله، تسجل ذكرياتها الحلوة بالصور، ثم يجىء واحد بعدها ويبيعهـا لبتاع الروبابيكيا!... نفس الصور، ناس تحافظ عليها زى عينيها... وناس تانية ترميها مع الكراكيب!... عجايب والله!... نفس الحاجة، لكن فى كل زمن على حال... عزيزة علـى نـاس وتهـون علـى ناس!... وهذه صورة يركبون فيها عربة يجرها حصان... كارتة...

نفس ملامح حماته عندما كانت عروسة... لكنها أكبر فـى العمـر قليلاً... ومعها الرجل زوجها... وثلاثة أبناء، ولدان وبنت أيضاً... نعم... نعم... العائلة فى قُسحة... والبحر يبدو من بعيد... لازم فى المصيف... والأولاد مازالوا صغاراً... الرجل يبـدو فـى صـحة جيدة... عِفى... لابد أنه مات هو الآخر... لم يذكر شـفيق الكلـب سيرته... وهذه حقيبة المرحومة زوجته... إن بها صورة بالداخل... دى صورة شفيق ذات نفسه!... وعليها إهداء من الخاف... إلـى... زوجتى... جاءتك نيلة، خَطك زى الزفـت!... الحبيبـة... تـذكار المحبة... الأبدية... زوجك شفيق... يا كداب يا ابن الكلب!... لقـد نسيها فى الحقيبة... الأصول إنى أردها له، قد تكون عزيزة عليه... مين عارف؟!... سأردها له يوم الأحد القـادم بـإذن الله... وهـذه المذكرة!... مكتوب فيها كلام بالأفرنجى بخط اليـد!... لـو كنـت أستطيع قراءة الأفرنجى لعرفت أسرار حماته!... سآخذها لسى نديم غداً لأسأله عما بها من كلام مكتوب بالأفرنجى.

(٣٥)

استيقظ حافظ فى الصباح على كابوس... اللهم اجعله خيـراً... قلبه يدق بسرعة وريقه ناشف. قام وعب عدة جرعات مـن القلـة.

سالت قطرات الماء على جانبى فمه فأنعشته. تجشأ ارتواء ونهـض لعمل الشاى. شعرت به صفية فقامت ولحقت به، قالت له:

- عنك أنت... سأُحضر لك الشاى والفطور.

خرج يتنسم هواء الصباح ليتخفف من وطأة الكابوس. عاد إلـى العشة وجلس إلى الطبلية ينتظر فراغ صفية من إعداد الفطور. وقع بصره على ألبوم الصور والأجندة. قام وأخذ الأجندة ليضـعها فـى العربة حتى لا ينساها.

شرب الشاى وأفطر وحمد. قام إلى صابر وربطه فى العربة ثم سأل صفية:

- عاوزة حاجة يا صفية قبلما أتوكل؟

- عاوزة سلامتك يا أخويا... جِسك فى الدنيا.

قفز فوق العربة وتوكل على الله. كانت حكاية الأسـتاذ شـفيق وامرأته المتوفاة وحماته، إلى جانب عروسته الجديدة، تشغل باله. لا يدرى لمه؟!... قطع تفكيره نداء بائع عجوز يقترب منه وهو يجـر رجليه:

- اليموى... اليموى...

حاذاه فسأله:

- إيه يا عم... ماذا تبيع؟!

أجابه وهو يحمل شواله على كتفه بصعوبة:

- اليموى يا ابنى...

- إيه اليموى دا ياعم؟... حاجة جديدة!...

- يموى يا ابنى... يموى...

فتح له الشوال ففطس على روحه من الضحك.

- اسمه ليمون يا عم!...

- يا ابنى العتب على الأسنان التى راحت... ربك سايع النـاس فى ملكه... مقطوع من شجرة ولازم أجرى على رزقى!...

شعر بالخجل من نزقه وبدا عليه الارتباك. نزل من فوق العربة وقال للرجل وهو يربت عليه باعتذار:

- سامحنى يا عم... كنت أضحك معك. أعطنى خمس ليمونات.

- اضحك يبنى على كيفك... ربنا يسعدك ويفرح قلبك...

اشترى الليمون وقال للرجل وهو يمتطى عربته:

- ربنا يرزقك على قد تَعبك.

دعا له الرجل فى المقابل ومضى ينادى:

- اليموى... اليموى...

وصل إلى كشك نديم فوجده جالساً يتصفح الجورنال، صبح عليه ومد له يده بالأجندة متسائلاً:

- هل تقرأ بالأفرنجى ياسى نديم؟!

مد نديم يده يتلقى منه الأجندة وهو يجيبه:

- بسيط...

تصفح الأجندة ثم قال له:

- ماذا تريد منها؟... الكلام المكتوب فيها بالفرنسية.

- اقرأه لى.

- أنا أعرف بعض الكلمـات بالإنجليزيـة، لكنـى لا أعـرف الفرنسية.

بان عليه الإحباط وزفر بيأس.

- يا خسارة!

تعجب نديم وسأله:

- وماذا يهمك فيها؟... كلام مكتوب بخـط اليـد... والأجنـدة قديمة... مكتوب عليها سنة ١٩٣٠.

- يا خبر أبيض!.. ١٩٣٠... دا أنت شوقتنى أكثر.

ابتسم نديم لفضول حافظ وفكر قليلاً ثم قال له:

- الآنسة هالة كانت فى مدارس فرنسية، وهى الآن تدرس فـى كلية الآداب. زبونتى هى وأهلها. سأسألها لك. عموماً، هى تعـودت أن تمر على قبل ذهابها للجامعة، بينى وبينك لشراء سجاير، فهـى تدخن من وراء أهلها. تشترى أيضاً لبان نعناع للتغطية على رائحة السجاير.

- متى تذهب إلى الجامعة؟

- فى حدود التاسعة صباحاً.

- ربنا يخليك ياسى نديم. سأمر عليك غداً قبل التاسعة.

سالمة يا سلامة... رحنا وجينا بالسلامة

إيلى... بيكيا.

(٣٦)

سألته صفية فى الصباح قبل أن يسرح على رزقه:

- متى سنروح شبرامنت؟.

فكر حافظ لبرهة ثم قال لها:

- سأشترى الزيارة اليوم ثم نذهب بكْرة إن شاء الله.

اليوم يريد أن يلحق سريعاً موعد الآنسة التى سـتقرأ المـذكرة بالأفرنجى وتحكيها لهما هو ونديم.

قفز على العربة بهمة وقال لصابر:

- هيا بنا يا صابر، على نديم أولاً ثم سنذهب إلى السـوق بعـد ذلك لشراء الزيارة لحماتى وحمايا.

تهادى صابر، مستجمعاً همته، فى طريقه إلى كشك نديم فاستحثه حافظ:

- شَهل يا صابر لنلحق بالآنسة قبل أن تمشى.

وصلا إلى الكشك قبل موعد وصول الآنسة. وقف يتسامر مـع نديم وهو يقَلب فى الأجندة متعجباً:

- تصور ياسى نديم، هذه الكتابة بالقلم الرصاص تعيش من سنة ١٩٣٠ وحتى الآن؟!... ويا عالم، حتى متى!...

تساءل نديم متعجباً:

- وماذا فى ذلك؟!.

- تُرى كم من الناس كانت تعيش سنة ٣٠ ومازالت علـى قيـد الحياة حتى الآن؟.

- كثيرون...

- يعنى كم تقريباً؟!...

- أمرك عجيب يا حافظ!... وماذا يهمك أنت؟!...

- ألست بتاع روبابيكيا؟!... شغلى وحياتى هى الحاجات القديمة. تصور إن الجماد يعيش أكثر من بنى آدم!...

- طبيعى... الأهرام لها آلاف السنين... والنيل...

- ليس هذا قصدى... الأشياء الصغيرة فى حياة كل واحد منـا، تختلف عن المبانى والنيل.

- وكيف تختلف؟

- لا أعرف بالضبط... لكنها تختلف عن الحاجـات الكبيـرة... تختلف مثلاً... فى أنها كانت تخص بنى آدم معـين... فيهـا مـن حياته... من رائحة عرقه... يمكن أن تكون دمعة نزلت من عينـه عليها...

- ربنا يكملك بعقلك يا حافظ!...

جاءت الآنسة هالة وهما حائران فى حديثهما. صبحت وفتحـت حقيبة يدها لتضع فيها السجاير واللبان اللذين مد لها نديم يده بهمـا وهو يقول بتردد:

- كنا نقصدك فى خدمة... لو كان عندك وقت...

- تفضل... أنا ذاهبة إلى الكلية مبكراً عن موعد المحاضرة.

مد لها نديم يده بالأجندة وهو يقول:

- حافظ يعمل فى الروبابيكيا... أعطـاه أحـد الزبـائن هـذه الأجندة... من مخلفات حماته... مكتوب فيها كلام بالفرنسية ونفسه أن يفسره...

نظرت الآنسة هالة إلى حافظ باندهاش وابتسـامة سـاحرة قـد أنارت وجهها... تناولت الأجندة ونظرت إليها ملياً... قلبتهـا فـى أيديها وقرتها سريعاً... سألته بفضول:

- ولماذا تريد أن تعرف ما فيها؟!...

خفض حافظ رأسه خجلاً وتلعثم قائلاً:

- لا أبداً... الرجل الذى أخذتها منه، قـال لـى إنهـا تخـص المرحومة حماته... أردت أن أعرف ماذا كانت تكتب حماته فى هذا الزمن البعيد... خاصة أن الكتابة بالأفرنجى... وحماته مصرية.

ضحكت من قلبها وقالت له:

- والله العظيم أنت مزاج!...

نظرت باهتمام إلى الأجندة وقالت لهما:

- هذه أجندة العام الجديد... مثل التى توزع فى أول كل عام... كان سنة ١٩٣٠... ياه... دى قديمة بصحيح... كان يـوزع هـذه الأجندة محل اسمه جاليرى لافـاييت، فى الإسكندرية. هذا محل فى

باريس أصلاً... مشهور جداً... الظاهر كان له فرع فى الإسكندرية وقتها... هل الست صاحبة الأجندة إسكندرانية؟!...

أجابها نديم:

- ضرورى...

تصفحت الأجندة ثم قالت:

- هذه صفحة يبدو أنها كانت تسجل فيها مشترياتها فـى ذلـك اليوم.

- سألها حافظ بفضول:

- ماذا اشترت؟!... وماذا كان يبيع هذا المحل؟!...

- هذا محل ملابس كبير... زى عمـر أفنـدى مـثلاً... لكنـه أفخم... شُف ياسيدى... العنوان:

مصروفات نثرية

١ بلوڤـر أصفر	٧٠,٠٠
١ جونلة صفراء	٣٠,٠٠
١ حذاء أسود لّميع	٧٠,٠٠
١ برنيطة صفراء	٣٠,٠٠
١ فستان أحمر	١٧٠,٠٠
١ برنيطة بيـچ	٥٠,٠٠
١ برنيطة حمراء	٧٠,٠٠
١ حذاء بيـچ	٧٠,٠٠

١ فستان بيـج	١٠٠,٠٠
١ حلية بنية	٢٠,٠٠
١ إشارب أحمر	٧٥,٠٠
مصاريف نثرية	٢٠,٠٠
كوافير	٣٥,٠٠
١ جورب	٥٠,٠٠

وهذه يا سيدى مصروفات البيت.

٢	فول
٥	سيجار
١٠	أم سنية
٤	للأطفال
٢	طماطم
١١	لحم
١	بقدونس
٣	ملوخية

وهذه يا سيدى وصفات أكل، وصفة بسكويت، وهذه وصفة كيكة ذرة... هذه مربى الفراولة...

وهذه أغنية مكتوبة بالعربى:

يا محرم بك يا محرم بك

حبيت جميل، لكن أعمل إيه

آه... كوى قلبى يا ناس بوريه

مرواح كازينو محرم بك.

- الله الله الله...

قالها حافظ بسلطنة وانسجام...

سألته الآنسة هالة:

- هل تبيع هذه الأجندة؟.

رد حافظ مفزوعاً:

- لا يا ست هانم... أنا سأحتفظ بها...

ضحكت وهى تمد يدها إلى حافظ بالأجندة. شكراها بامتنان وهى تودعهما ووقف حافظ كالمذهول. سأله نديم:

- خير يا حافظ!... أين رحت؟.

- فى سنة ١٩٣٠... فى محرم بك وفى الإسكندرية... فى الست حماة الأستاذ شفيق!...

(٣٧)

ودع حافظ نديم واستقل عربته. سار فى حالة سرحان... تـرى كيف كانت الشوارع سنة ١٩٣٠؟!... طبعاً لم تكن مزدحمـة مثـل هذه الأيام... فعلاً... الواحد يشاهد فى الأفلام القديمة عربة واحـدة أو اثنتين بالكثير فى الشارع... والشوارع فاضـية... فـاكر فـيلم الوسادة الخالية وعبد الحليم حافظ يسير خلف لبنى عبد العزيز فـى

الشارع... وهذا لم يكن فى سنة ٣٠... ترى، هـل كانـت العيشـة أسهل زمان؟!... يا سلام... والكلام المكتوب عن كـازينو محـرم بك... حبيت جميل لكن أعمل إيه... هل كانوا يعملون غراميات مثل بنات الأيام دى؟!... هكذا عينى عينك... قال إيه... آه... كوى قلبى يا ناس بوريه... يعنى جدودنا كانوا يحبون، ويقـابلون المحبـوب أيضاً؟!... ومن أم سنية هذه التـى أخـذت ١٠... ١٠ مـاذا؟!... قروش أم ملاليم؟... هل كانت الست التى تجىء للتنظيف مثلاً؟!... أم كان الأمر سداداً لسلفة؟!... أو قسط جمعية؟!... ومـن ذا الـذى كان يشرب سيجاراً؟!... لازم أبوها... أبو حماة الأستاذ شـفيق... يا!....

سار حافظ بالعربة يضرب أخماساً فى أسداس... من الواضح أن حافظ يعشق الحواديت إلى جانب الروبابيكيـا... هـل الحواديـت مرتبطة بالروبابيكيا؟... بكل ما هو قديم؟... اتجه إلى سوق الجامع واشترى زوجى فراخ لزيارة حماته مع أرز وسكر ودقيق وزجاجتى زيت. اشترى أيضاً اثنين كيلو بسبوسة لكى يحلّى الجماعة بفّهم.

أكمل دورة النهار وعاد فى الغروب. قال لصفية:

- لقد اشتريت الزيارة للجماعة وسنذهب غداً لزيارتهم بإذن الله. سنصحو من النجمة ونتوكل على الله، فالمشوار طويل.

استيقظت صفية من النجمة. أرضعت خيرية وحلبـت سـعدية. أيقظت حافظ بعد أن أعدت له الشاى والإفطار. جلس حافظ يغالـب النوم وهو يلوك اللقمة بتكاسل.

قالت له صفية:

- اعمل لك همة يا حافظ... طريقنا طويل، ليتنا نلحق ونقطـع مسافة قبل الزحمة. أكمل أكلك بسرعة وسأجهز أنا الأولاد.

تحامل حافظ على نفسه وأكمل إفطاره. نهض بتكاسل وتمطأ قبل أن يغادر العِشة إلى بيت الراحة ليقضى حاجته. عاد وصبح علـى صابر ثم ربطه بالعربة ووضع له كيس التبن ليفطُر حتـى تجهـز صفية والأولاد.

جاءت صفية تحمل خيرية وتسحب يوسف بيدها وهو يتأرجح فى مشيته بصعوبة فى أثرها ويتعثر منها كل خطوتين. حمـل حـافظ الزيارة ثم أعطته صفية كيساً وقالت له:

- هذا أكل للطريق وبعض البرتقال. ضعهم بالقرب منا.

وضعت يوسف فوق العربة ووسدت خيرية إلى جـواره فـوق بطانية صغيرة. استدارت وأحضرت زبادى فسألها حافظ باستنكار:

- وهل سنأخذ هذا معنا هو الآخر؟...

أجابته بحزم:

- نعم... الكلب صغير وعظمه طـرى... أليس مـن عمـر خيرية؟!... لا أستطيع أن أتركه قليل الحيلة مع سعدية وضلمة.

هز رأسه مستسلماً وقفز فوق العربة بعد أن ساعد صفية علـى الصعود، هى وزبادى فى يدها.

ساروا يتهادون فى البداية فى طريقهم إلى الجيزة فشارع الهرم، ومنه إلى شبرامنت على ترعة المريوطية. قريـة أصـبحت علـى أطراف القاهرة بعد أن زحف العمار إليها. قطعا الطريـق الطويـل وهما يتسامران بالحديث أحياناً، أو يتفرجان على البلاد والعباد فـى أحيان أخرى. اشتاق حافظ لكوب شاى فقال لصفية:

- سنقف بالقرب من أول مقهى يصادفنا، نشرب الشاى ونستريح قليلاً، صابر أيضاً يجب أن يستريح ويشرب. سأملأ له الجردل مـن القهوة.

أوقف حافظ العربة ونزل عند أول مقهى صادفهم. أخذ الجـردل معه ودخل ليطلب الشاى. عاد ومعه القهوجى بصينية الشاى. وضع الجردل أولاً لصابر ليشرب ثم أخذ كوبى الشاى وأعطـى صـفية كوبها.

شربا الشاى واستراحا هما وصابر ثم أعاد حافظ الكوبين ودفـع الحساب قبل أن يستأنفوا طريقهم.

انتصف النهار والعربة تتهادى بالركب متخذة طريق الجيزة.

سألته صفية:

- هل تأكل لقمة؟

رحب حافظ لجوعه. توقف بالعربة إلى جانب الطريق فى موقع هادئ وأخرجت صفية الخبز وقطعة جبن من الكيس. قبل أن يشرع حافظ فى الأكل نزل ووضع كيس التبن لصابر. جلس يأكل باستمتاع بينما انهمكت صفية فى إرضاع خيرية أولاً، وقد أعطت لقمة بجبن ليوسف. بعد انتهائها من إرضاع البنت، أكلت لقمة ثم أخرجت كيس البرتقال وشرعت فى تقشيره. قدمته لحافظ وفصصت واحدة ليوسف. أكلوا وحلّوا وانبسطوا ثم واصلوا المسير.

قالت صفية بعد أن ساروا قليلاً:

- نريد بعض الحليب لزبادى.

طمأنها حافظ:

- سأحضر له كوباً من أقرب مقهى.

(٤٠)

وصلوا إلى الجيزة بعد الظهر. استراحوا قليلاً ثم واصلوا طريقهم فى شارع الهرم. قال حافظ لصابر وهو يداعبه باللجام:

- زمانك تعبت يا صابر... اطمئن، لن نعود اليوم...

استدارت صفية وقالت لحافظ:

- ليتنا نبقى مع الجماعة يومين أو ثلاثة.

- لا يا صفية... سنعود غداً حتى أتمكن من النزول إلى الشـغل بعد الغد. إذا أردتِ أن تبقى أنت والأولاد، على كيفـك... أتـركم أسبوع أو اثنين ثم أعود لآخذكم.

أشاحت صفية بيدها وقالت له:

- لا يا سيدى... رجلى على رجلك.

وصلوا أخيراً إلى ترعة المريوطية وانعطفوا يساراً.. تنهد حافظ ودندن بسلطنة:

سالمة يا سـلامة رجنا وجينا بالسلامة

انطلقت صفية خلفه وهى تجلس مقرفصة وخيرية فى حِجرها:

صفر يا وابور واربط عندك نَزلنا فى البلد دى

بلا أمريكـا، بـلا أوروبا مافيش أحسن من بلدى

دى المركب اللى بتجيب أحسن من إللى بتودى

وهى تقول يا أسطى بشندى، خبطته بكفها على ظهره بدلال.

وصلوا إلى شبرامنت قبل المغرب. كان وقع المفاجأة بهيجاً على عم عبد الرحمن والخالة بهجة. تلقفا ابنتهما بالأحضان قبل أن تناولهما الوافد الجديد، خيرية. أطلق زبادى نباحه المأخوذ فسألت الخالة بهجة:

- وإيه دا الآخر؟!

قالت صفية والفرحة مازالت تنير وجهها باللقاء:

- دا زبادى يا أمه، لقيناه فى السكة، من عمر خيرية.

مصمصت الخالة بهجة وتمتمت متسائلة:

- ألم تكفِكما القطة؟!... عجايب والله!.

علق حافظ:

- دا وهبة من عند ربنا يا خالة بهجة.

أجابته بتهكم:

- أيوه صحيح... جمع عيشة على أم الخير!...

ضحكت صفية من ملاحظة أمها وقالت:

- وماله يا أمه... ربك سايع الناس فى ملكه.

كان عم عبد الرحمن جالساً على الدكة يستمع لحديثهم بدون اهتمام وهو يحتضن يوسف القابع بحجره ويداعبه بفرح الجدود.

بعد أن استراحوا من عناء الطريق، فرشت الخالة بهجة العشاء وجلسوا يتسامرون حول الطبلية. سألت صفية:

- ما أخبار أخى مصطفى؟.

رد عم عبد الرحمن وهو يلوك الطعام بفمه:

- أرسل جواباً منذ يومين. كلهم بخير وزينب حامل.

قالت صفية:

- ربنا يرزقهم بالولد.

علقت الخالة بهجة:

- زينب كل خلفتها بنات.

نظرت إليها صفية نظرة تأنيب وقالت:

- على العموم كل اللى يجيبه ربنا خير... ألن يحضروا قريباً؟.

اعتدل عم عبد الرحمن فى جلسته والتفت إليها قائلاً بفخر:

- صعب يا صفية... المصنع لا يستطيع الاستغناء عنه.

مصطفى، أخو صفية، حاصل على دبلوم صنايع ويعمل براداً فى مصنع نسيج بالمحلة الكبرى. يتهيأ لعم عبد الرحمن أن ابنـه هـو المسئول عن إدارة المصنع. مستور الحال ويرسـل مبلغـاً شـهرياً لوالده ووالدته.

تثاءب حافظ فقالت صفية:

- هيا بنا للنوم... النهار كان طويلاً.

من النجمة، قامت الخالة بهجة وحمت الفرن. جلست تَات العجين قبل أن يستيقظ الجميع. استيقظ عم عبد الـرحمن مبكـراً كعادتـه وصلى الفجر ثم جلس ينتظر استيقاظ صفية والأولاد.

حضرت الخالة بهجة الإفطار وأيقظتهم... اصحوا كفايـة نـوم، ناموسيتكم كحلى!... قربنا على الظهر... تَحلقـوا حـول الطبليـة ورائحة الفطير المشلتت تفتح الشهية. إفطار فلاّحى عـامر بـالجبن والمِشّ والقشدة الفلاحى وعسل النحل، إلى جانب البيض المسـلوق والفطير المشلتت... حاجة تفتح النِفس بصحيح، وكلّـه مـن خيـر البيت.

قال حافظ بعد الإفطار والشاى:

- نريد أن نمشى قبل الظهر بإذن الله.

انتفض عم عبد الرحمن قائلاً:

- كلام إيه دا... نحن لا نراكم كل يوم... أنا عاوز أشـبع مـن العيال... على الطلاق لن يمشى أحد اليوم... تبيتون معنا والصباح رباح.

أسقط فى يديهم بعد أن رمى عم عبد الرحمن يمين الطلاق.

قالت الخالة بهجة:

- أريد أن أُحضر لكم زيارة لتأخذوها معكـم أيضـاً، أعملهـا النهاردا وتكون جاهزة لتأخذوها معكم باكر بإذن الله... هى الـدنيا طارت؟!...

ابتسمت صفية ونظرت إلى حافظ مبدية قلة الحيلة بمكر ساحر وداخلها يقفز من السعادة.

(٤٣)

ذبحت لهم الخالة بهجة جوزين فراخ على الغداء وطبخت أرزاً وقلقاسا. تغدوا وانبسطوا وأمضوا بقية النهار معاً، عم عبد الرحمن يعاكس يوسف أحياناً ويتسامر مع حافظ أحياناً أخرى فى أمور الدنيا، والخالة بهجة تَنِم مع صفية عن ناس شبرامنت وأحوالهم. بعد المغرب، زارهم الجيران والمعارف للترحيب بهم والمباركة لصفية على قيامها بالسلامة من ولادة خيرية. بعضهم نقطَها، والبعض لم تساعده ظروف المعيشة. ذهب الرجال لصلاة العِشاء بالجامع ومكثت الستات بالدار.

فى اليوم التالى، حضرت الخالة بهجة الزيارة لابنتها. ذكر بط محمر وبرام أرز معمر بالحمام، مع علبة قشطة فلاحى وعسل نحل ومش بالجبن القديمة وبيض بلدى.

قالت صفية للخالة بهجة:

- تسلم يداك يا أمه... الأكل فى مصر الجديدة مالهوش طعم... خصوصاً البيض... يا سلام على البيض البلدى... طعمه زى المسك.

قبل الظهر بقليل، حمل حافظ العربة وركبوا بعد وداع حار مع الخالة بهجة وعم عبد الرحمن لم يخلُ من دمعتين بين السنات. الفراق صعب، خاصة مع الود. تحركوا من شبرامنت بعد أذان الظهر. حثّوا السير فى البداية فالطريق طويل، وسيقطعون القاهرة من جنوبها إلى شمالها. أخذت صفية تحكى لحافظ عن بعض ما سمعته من أمها من طرائف ناس شبرامنت وأحوالهم. ساروا مدة طويلة حتى وصلوا إلى ميدان الجيزة الذى كان شديد الازدحام كالعادة. عزم حافظ على الراحة عند أول مقهى هادئ يصادفهم. توقفوا وملأ الجردل ماء ليشرب صابر. شربا الشاى وأرضعت صفية خيرية ثم واصلوا المسير.

طريق الرجوع أكثر ثقلاً على النفس من طريق الذهاب. فالذهاب اشتياق، والذهاب تَرقب وفرحة... أمل، لكن العودة فراق للأحباب... فراغ وإرهاق، وانتظار للنهايات. الوصول بهجة... والرحيل غُصة... كفاكم الله شر الرحيل...

ظل صابر يقطع الطريق وهو يسحبهم بالعربة، بينما نعست صفية والأولاد. أخذ حافظ يرقب الطريق منتبهاً ويوجه صابر خلاله، وسط مخاطره المحدقة. نزل الغروب وحل التعب على الجميع. أوقف حافظ العربة ليريح صابر قليلاً. وضع له كيس التبن وجلس إلى جوار صفية وهى تتأرجح كالبندول ما بين النعاس والتيقظ. سألته بتكاسل:

- أمازال أمامنا طويلاً؟

أجابها مطمئناً:

- هانت... أكملى نومك أنت...

واصلوا المسير وقد حل بهم الإنهاك. قبل أن يصلوا بقليل فاجأتهم صدمة من الجانب الخلفى للعربة صرخا لها فزعين. دفعة ماجنة من سيارة ميكروباص وهى تتفادهم بالكاد فى اللحظة الأخيرة. ارتجت العربة بقوة وانكفأ صابر المنَهك فمالت العربة للأمام. حجب حافظ صفية والأولاد بساعده فى آخر لحظة ليقيهم من السقوط. نظر برعب ناحية السيارة الميكروباص الطائشة، والتى كانت قد تجاوزتهم وابتعدت بمسافة... الله يخرب بيتك وبيت سنينك... كدت تُضيعنا... نزل سريعاً واندفع إلى صابر ليرى ما حدث له... نظر إليه صابر بعينين مجهدتين. تحسس حافظ ساقيه فوجد بعض التسلخات السطحية فيهما. أعانه على النهوض وراقبه بقلق. تمكن صابر من الوقوف فاطمأن حافظ إلى عدم وجود كسور فى ساقيه. سألته صفية بوجل:

- هل صابر بخير؟!

- بخير والحمد لله... تسلخات بسيطة فى ساقيه من أثر الوقعة...

تَفت صفية فى صدرها لتدرأ الخضة وهى تبسمل. لم يع يوسف ما حدث وتصور الحكاية لعبة فضحك.

نظر حافظ إلى صابر وسأله:

- ها يا صابر... هل تقدر على المشى؟...

رآه يومئ برأسه بهدوء ثم تحرك قليلاً بالعربة. ربت عليه حافظ وقفز فوق العربة. وصلوا بعدها بقليل والليل قد حل. غسل حـافظ جروح صابر بالماء جيداً قبل أن يلحق بصفية والأولاد للنوم وهـو فى غاية التعب والزعل على ما حدث لصابر المسكين.

(٤٤)

نام الجميع زى الفسيخة من تعب الطريـق وخَضـة الحـادث. استيقظ حافظ من النجمة ليطمئن على صابر. تهيـأ لـه أن عينيـه مغرورقتان بالدموع... ربت عليه ومال علـى سـاقيه الأمـاميتين ليعاينهما. تحسس التسلخات برفق ثم نهض ليحضر جـردل المـاء ليغسلهم. وضع كيس التبن لصابر فى رقبته، لكنه هز رأسه يمينـاً ويساراً معلناً عزوفه عن الأكـل... خيـر يـا صـابر!... نِفْسـك مسدودة؟!... أومأ برأسه فنزع حافظ كيس التبن وقّرب لـه جـردل الماء. شرب صابر حتى ارتوى ثم تبول بارتياح.

نهض الفجر متئداً كعادته يتقدم خلف بقايا الليل. استيقظت صفية لترضع خيرية ثم قامت لتبحث عن حافظ. سألته عن صابر وهـى تشعل الوابور لعمل الشاى فطمأنها على ساقيه، لكنه اشـتكى لهـا فقدانه للشهية:

تساءل حافظ أثناء الإفطار حائراً:

- ترى كيف سنذهب لأبى وصابر على هذه الحال؟!.

أجابته مهونة عليه:

- لنذهب بالميكروباص ونريح صابر.

صمت ساهماً. سمع للتو نهيق صابر... هل سمعنا؟!... أم أنـه يتهيأ لى؟... ردد ليتأكد من الحكاية:

- نذهب بالميكروباص ونترك صابر ليستريح... فكرة!.

تكرر نهيق صابر على الفور، لكنه كان هذه المرة يشى بما يشبه العناد... أخ، والله العظيم صابر يسمعنا ويفهمنا أيضاً... ألم أقل لكِ إنه يتكلم معى مراتٍ بالليل؟!...

ابتسمت صفية وأشاحت بيدها قائلة:

- يا اخويا بطل وسوسة.

انبرى مؤكداً:

- والله العظيم صابر يفهم كل حاجة... ويتكلم عندما يريد.

- ولماذا لا أسمعه؟!...

- لأنك لا تصدقين... الشك يملأ قلبك والإيمان هو الذى يلهـم حواسنا.

نهض حافظ منفعلاً وذهب إلى صابر لائذاً. ربت عليه بود فسمع همساً خافتاً:

- أنا الذى سآخذكم إلى الجماعة ياسى حافظ.

صاح حافظ منفعلاً:

- شُفتِ... أجاء لك كلامى؟!... لقد قال لى معاتباً إنه هو الـذى سيأخذنا إلى قها.

هزت صفية رأسها وهى تتمتم يائسة:

- ربنا يكملك بعقلك يا اخويا!...

(٤٥)

قرر حافظ أن يؤجل زيارته لأبيه أسبوعاً حتى تبرأ ساقا صـابر تماماً ويستعيد عافيته... لا يمكن أن يكسر بخاطره مهما كان. قـرر أيضاً أن يريح صابر يومين حتى يوم الأحد، موعده الأسبوعى مـع الأستاذ شفيق.

يوم الأحد صباحاً، اطمأن على ساقى صابر أولاً ثـم تأكـد أن صورة الأستاذ شفيق، التى أهداها إلى المرحومة زوجته، معه فـى المحفظة. أكل لقمة مع صفية ثم توكل على الله. انتـوى أن يـذهب فقط إلى مشوار الأستاذ شفيق، ثم يكتفى بذلك ويعود، حتى لا يجهد صابر. فجأة تذكر الخالة عزيزة. تبين أنه لم يمر عليها كما اعتـاد، ومنذ مدة طويلة... يا عيب الشوم... أخشى أن يكون قد حدث لهـا مكروه... الست وحدانية وصحتها على قدها... لازم أمر عليها فى طريقى... سآخذ لها زيارة بمناسبة ولادة خيرية. قال لصفية:

- حضرى زيارة للخالة عزيزة. سأمر عليها اليوم فى طريقـى للأستاذ شفيق.

قالت له صفية وهى تنهض من قعدتها:

- لم أرها منذ ما قبل الولادة بشهر تقريباً... ترى كيف حالها؟

- ست مسكينة ومقطوعة من شجرة.

- ربنا يتولاها برحمته.

- ربك لا ينسى أحداً...

تذكر على زميل الحجز فى القسم!... هل نسيه ربنا، أم أنه هـو الذى نسى الله وسرق؟!... لكنه سرق بعد أن عجز عن أن يجد مـا يأكله... وهل الجوع يبرر السرقة؟!... دا اسمه كـلام!... فليظـل جوعاناً حتى يفتح عليه ربنا... لكن يجـب ألا يسـرق... السـرقة حرام... طيب والجوع!... هل الجوع حلال؟!...

جاءت صفية بلفة وقالت له:

- لففت لك أربع بيضات وحتة جبن قريش ومعهم حلاوة طحينية وكم رغيف وبرتقالتين.

- تسلم يداك يا صفية. ربنا يجازيك على قد قلبك.

امتطى العربة وتهادى به صابر على المهل. اتجها إلى الشـارع الذى تعيش به الخالة عزيزة، على طرف الجنينة التى تتوسط المربع السكنى القريب من المطافئ. الخالة عزيزة تعيش هناك وحيدة منـذ سنوات. تفترش بطانية قديمة على أرضية الرصيف. أولاد الحـلال

فى المنطقة، شدوا لها قماشة متينة على أوتاد طويلة ثم ربطوا أحـد أطرافها بالشجرة دعامة لها، لتكون بمثابة حماية لها مـن أمطـار الشتاء وحرارة الصيف، لكن الرياح البـاردة والخماسـين المتربـة يجتاحانها فى مواسمهما المستبدة. عجوز مقعـدة ولا تسـتطيع أن تصاب طولها، تتحرك زحفاً لتقضى حاجتها بعيداً عن مستقرها فوق البطانية التى تفترشها تحت مظلة القماش، كذلك عندما تتطوع واحدة من شغالات الجيران أو زوجات البوابين، لإعطائها حماماً بالمـاء والصابون عندما تتراكم عليها قاذورات الطريق وإفرازات الجسـد. سعادتها الوحيدة فى الحياة شرب الشاى باللبن وهى تتـذكر أيامهـا البعيدة قبل أن تبطش بها الأقدار. أحياناً تبتسم، وأحياناً أخرى تدمع عيناها فى صمت.

أوقف حافظ العربة إلى جوار الخالة عزيزة التى بادرته قائلة:

- والله زمان يا حافظ... هل ولدت صفية؟

- جاءتنا خيرية... وأحضرت لكِ حلاوة مجيئها.

- ربنا يفتح عليك يا حافظ.

جلس يتسامر معها قليلاً ثم ترك لها لفة الزيارة وودعها متوجهاً لمنزل الأستاذ شفيق.

فتح له الباب مرتبكا منكوش الشعر، بادره قائلاً:

- لم أتمكن من تحضير شىء لك هذا الأسبوع، كنت مشـغولاً. مر على الأحد القادم.

- ولا يهمك يا أستاذ شفيق... ملحوقة.

أخرج المحفظة من جيب الصـديرى بهمـة، فتحهـا وأخـرج الصورة، مدها إليه وهو يقول:

- هذه صورتك يا أستاذ شفيق، وجدتها بحقيبة الست. يبدو أنـك لم تلحظها. وجدت عليها إهداء منك للمرحومة، قلت أحضرها لـك فهى تذكار منها.

نظر إليها بسرعة دون أن يمد يده ليأخذها، قال له وهـو يـرد الباب:

- احتفظ بها تذكاراً منى لك.

نزل حافظ متعجباً. صورة له عليها إهداء منه للمرحومة زوجته ولا يريدها!... وماله منكـوش ومربـوك هكـذا!... والله رجـل خلبوص!...

(٤٦)

يا أخى الخالة عزيزة دى حكايتها غريبة... لم يرد لذهنى أبداً أن أسألها عن أصلها وفصلها، حكايتها ولماذا تعيش فـى الشـارع؟... أقصى ما يفعله الواحد هو أن يحِن عليها بلفة أكل ثم يواصل طريقه، كأنها واحد من معالم الشارع والمنطقة... مثلها مثل الشـجرة... أو

الخرابة المجاورة للمخبز. أليس لها أحد من عائلتها ليسأل عنها؟!... وماذا أتى بها إلى هنا؟...

سرح حافظ فى أمر الخالة عزيزة وهو عائد إلى العِشة، كـان لا يريد أن يجهد صابر بطول المسير... هز رأسه عجباً وهو يتمتم... حتى صابر وسعدية وضلْمة وزبادى، فلهم من يسأل عـنهم ويهمـه أمرهم... ربنا يعينك يا خالة عزيزة... لازم الواحد يفتكرها دائماً.

فى الأسبوع التالى، حضر زيارة ليأخذها إلى والدته بقها. حمـل العائلة فوق العربة مع الزيارة ثم توجهوا من النجمة إلـى هنـاك. حرص على إراحة صابر أكثر من مرة أثناء الطريق وقضوا الليلـة مع أبيه وأمه وأخته بهانة، التى تعيش معهمـا بقهـا هـى وابنهـا عوضين، بعد أن انقطعت أخبار زوجها الذى سافر للعراق منذ مـا يزيد عن العشر السنوات. فرحت العائلة بخيرية وقضـوا السـهرة يتسامرون فى الأحوال. اطمأن حافظ فى الصباح على ساقى صابر واتخذوا طريق العودة قبل الظهر ليصلوا مع المغرب.

(٤٧)

- إلا صحيح يا خالة عزيزة... أين أهلك وناسك؟!.

- ليس لى أحد يا ابنى... وأصبحت مقطوعة من شـجرة بعـد موت المرحوم زوجى منذ سنوات.

- وأهلك!... أين راحوا؟!...

- ماتوا من زمن، ولا أعرف أخبار أحد منذ تركت البلد وجئـا إلى مصر، أنا والرجل. العيشة كانت صعبة فى البلد وزوجى كـان مطلوباً فى ثأر.

- من أى بلد أنتِ يا خالة عزيزة؟

- بلدة صغيرة، قبل أسيوط على طول.

- وماذا كان يعمل زوجك؟.

- بياع سريح، كان يبيع سكر نبات فـى التراموايـات، بعـدها اشتغل فواعلى باليومية... حسب التساهيل، يوم شغل وعشرة بدون. بعدها مرض ومات، وأنا ركبنى المرض بعده وأصبحت كما ترى.

- ألم يرزقكم الله بأولاد؟

- عيل واحد ومات وهو صغير.

هز حافظ رأسه متأسياً ثم سألها:

- ألم تحاولى أخذ إعانة من الشئون؟

- يا ابنى أنا غلبانة ولا أستطيع الحركة... وليس عندى أوراق، لا شهادة ميلاد ولا بطاقة... الحكومة عاوزة أوراق... اسـكت يـا ابنى الله يرضى عليك... لا تُقَلب المواجع فى.

البنت دلال بائعة اليانصيب حِلوة ونغشة. حاطة عينها من حافظ وتشاغله كلما تلقاه فى طريقها.

خرج حافظ فى اليوم التالى لعودتهم من زيارة العائلة فـى قهـا ليسعى على رزقه مبكراً. انشغل فى الأسبوعين الماضيين بزيـارتى عائلة صفية وعائلته، كما تعطل أيضاً بسبب جـروح صـابر بعـد الحادثة.

استلقط فى بداية النهار بعض الحاجات المعقولة ثم فكر أن يَبَـر نفسه بكوب شاى فى القهوة. أصل حافظ صـاحب مـزاج ويعِـز الروقان. فى طريقه إلى القهوة، قابل دلال تتمخطـر فـى مشـيتها كعادتها فخفق قلبه. البنت حلوة قوى ومغرية. قوام فـاره ممشـوق وضفيرتها الوافرة مجدولة حتى وسطها. بيضاء كالشـهد وجسـدها يتراقص داخل جلبابها وهى تتهادى متعاجبة بنفسها. تحفف حاجبيها بعناية دائماً ويِنطق الكحل عينيها بالبريق... بالذمة، أما كانت تصلح كممثلة للسينما لو واتاها الحظ وانتسبت لناس متيسرى الحـال؟!... لها ملامح وطلة هى خليط بين نجلاء فتحى ومرفت أمين... توقـف بالعربة محاذياً لها فتبسمت وقالت وهى تتقصع فى دلال:

- خد لك ورقة يانصيب يا حافظ... على بختـى، وإن كسـبت يكون بالنصف بينى وبينك.

حافظ لم يفكر فى لعب اليانصيب من قبل، صحيح هو يحب لعب الكوتشينة على المشاريب، ويفرح إذا كسب... لما لا يجـرب؟!... أعجبته الفكرة فقال لها متحمساً:

- ماشى كلامك يا دلال. أعطينى واحدة.

أخذ ورقة اليانصيب ودس يده فى جيبه ليخرج المحفظة.

اعترضته قائلة:

- أنا لا أريد فلوساً... أريد أى حاجة نقاوة من الحاجات الحلوة التى تستلقطها.

قفزت إلى جواره على العربة قبل أن تكمل الجملة فمسته رعشة داخلية كأنها مس كهربائى، وفى لحظتها شعر بالإثـارة. مـد يـده وأمسك كفها وهو يفكر بسرعة ثم قال لها:

- قابلينى آخر النهار وسأحضر لكِ شنطة حريمى إنمـا إيـه... آخر جمال.

ضغط على كفها وهو يتم جملته. مالت عليـه ضـاحكة بـدلال فتمنى لو يختفى كل الناس بالشارع من حولهما. كان الـود وده أن يفترسها. تملصت من كفه وقفزت إلى الرصيف وهى تقول:

- خلاص... سأنتظرك بعد المغرب... لكن أين؟!...

فكر سريعاً ثم قال لها:

- عارفة الخرابة المجاورة للمخبز!... هناك.

أطلقت ضحكة مغناجاً وهى تقول باسمة:

- طيب... إياك أن تتأخر... سأنتظرك...

وزاغت من أمامه مبتعدة.

وقف ساهماً للحظات وقد اختلت بوصلتُه. استرد أنفاسه ولملـم نفسه بالكاد ثم هز اللجام وهو يقول بحسرة متنهداً:

- هيا بنا يا صابر... على القهوة.

(٤٩)

شرب الشاى وهو يتلوى من الإثارة... مغامرة غير محسـوبة. البنت حلوة قوى... وهو هايج وكفران... لم يلمس صفية منذ ما قبل ولادتها بمدة... وحتى لو كان قد نام مع صفية البارح... البنت تَحلّ من على حبل المشنقة... من ذا الذى يقدر على مقاومتها... لكنـك رجل متزوج وعيب... وماذا أفعـل؟!... وحـرام أيضـاً... لازم تقاوم... سأعطيها الشنطة وأمشى... نعم... عيب... من أجل خاطر صفية الأميرة... كيف يشتهى الرجل أكثر مـن امـرأة؟!... أينمـا يروح الواحد، تزوغ عينه على النسوان الحلوة... هل هذه فراغـة عين؟!... أم أنه شىء طبيعى؟!... وهل يمكن أن يحب الرجل اثنين نسوان؟!... والمرأة!... يا نهار أسود! مصيبة أن تكون هى الأخرى مثلنا... يعنى مثلاً... هل صفية...؟ ... لا لا... صـفية!... غيـر معقول!... صفية بنت حلال... وأنت!... ابن حرام يعنى؟!... لا...

الست تختلف عن الرجل... ولماذا؟... ألا يمكـن أن تكـون مثـل الرجل لكنها لا تجرؤ على اللعب بذيلها؟!... أو تعملها فى الخفاء... يعنى... هل يمكن أن تزوغ عينا صفية على رجل آخر؟!... غيـر معقول... صفية تضعنى فى عينيها... لا يمكن أن يملأ عينى صفية رجل آخر... أنا متأكد... هو دا اسمه كلام؟!...

(٥٠)

شرب الشاى وقام زى قُرقُع لوز... كأن عليه بيضة. قفز علـى العربة وقال لصابر:

- بنا على العِشّة.

عاد فوجد صفية قد أنهت الطبيخ... سألته:

- أتتغدى الآن؟

قال لها وهو سرحان فى ملكوته:

- لا مانع.

سألته وهما جالسان حول الطبلية:

- مالك... سرحان؟!...

انتفض قلقا وقد خفق قلبه بشدة. لم يجد ما يجاوبها به فتلعثم وقال مرتبكا:

- لا أبداً... أفكر فى الذهاب للسوق لبيع بعض الحاجات.

علقت متعجبة وهى ترمقه متفحصة:

- وهل هذا يحتاج سرحاناً؟!...

إيه حكايتها؟!... هل لاحظت على شيئاً؟!... كم أنت مفضـوح صحيح!... لابد أن أبدو طبيعيا حتى لا تشك.

- لم تأكل زى الناس!...

قال متخلصاً:

- أصلى أكلت سندوتشى فول الصبح... كتمـا علـى قلبـى... الحمدلله... شبعت... سأتوكل على الله الآن.

هذه هى خير وسيلة للتخلص من مراقبتها لى ومتابعتهـا لكـل صغيرة وكبيرة... سأزوغ قبل أن تلحظ شيئاً... ذهب إلـى ركـن البضائع وأخذ الشنطتين أولاً. وضعهما فى العربة ثم عـاد وحمـل بعض الحاجيات الأخرى للتمويه... كأنه رائح فعـلاً إلـى السـوق ليبيعها... أحسن حاجة أروح أقعد على القهوة حتى يحين الموعد فى الغروب. قبل أن ينصرف، التقط إحدى الشنطتين وقلبها فـى يديـه متفكراً ثم ذهب إلى صفية وسألها بتودد:

- هل تُعجبكِ هذه الشنطة يا صفية؟.

نظرت إليه ومدت يدها لتأخذها منه. قلبتها فى يدها ثم قالت لـه وهى تردها إليه:

- وماذا سأفعل بها؟!...

دفع يدها وهو يقول بحماسة:

- خَليها معكِ... حلوة فى يدك... خسارة نبيعها.

لم ينتظر واستدار مندفعاً تجاه العربة، قفز عليها وانطلق مبتعـداً كالهارب ومعه الشنطة الأخرى لدلال.

(٥١)

دخل إلى القهوة بلا حماسة وطلب شـاى كشـرى مـن كمـال القهوجى الذى علق مبتسماً:

- الِفقى لُما يسعد... نشوفك مرتين فى يوم واحـد... وسـاعات تغيب بالأيام...

تغاضى عن الملاحظة... إيه الحكاية!... الناس كلها حاطة عينها على!... وماذا فيها أن يجىء الواحد إلى القهـوة مـرتين وثلاثـة كمان؟!... جاءه بالشاى فجلس يتسلى به. أخذ ينتظر حلول المغرب بفروغ صبر... الوقت يتلكأ فيزيده قلقاً على قلق... يا سلام لو كان يملك غرفة بباب تسترهما هو ودلال... بدلاً من مقابلة الخرابـة... القصد!... البركة فى الضلمة... هـى بـاب الغلابـة... سـترهم وغطاؤهم... تخايلت له دلال أمام عينيه وهى تتمايع كعادتها... خلع خياله عنها ثيابها وأسلسلها له دون عناء... يا ليلة سودا... استرخت جميع كوابحه وشطح به الخيال معربداً جسوراً... تمركز العالم فيها فقط وتراجع كل ماعداها حد التلاشى. طلب شـاياً آخـر وواصـل

الترحال فى عالمه اللذيذ. سحب شفطة وافرة من الكوب لسعت لسانه فتململ واغتاظ.

لم يصبر حتى أوان الغروب. نهض مبكراً وقفز فـوق العربـة، سار متجهاً صوب المخبز. وصله والشمس تخلع وهجها بتؤدة قبـل المغيب، مازال قُدامها حبتان لتغرب وتلملم بقايـا أنوارهـا. سـار بعربته أمام الخرابة رائحاً جائياً يتململ من فرط التشـوق ووطـأة الانتظار. انتبه لوجود صابر معه... هل سيوقفه أمام الخرابـة؟!... بدا كالخجلان... هل يوقفه بعيداً؟... لقد سمعه صباحاً وهـو يتفـق معها على الموعد... لن يفيد التمويه عليه... كل حاجة معقدة!...

أخيراً غابت الشمس وهو واقف أمام الخرابة يعانى مـن القلـق والخجل. يخشى الناس ويخجل من صابر. يتلفت حوله كاللصـوص ليراقب إن كان أحد من المارة يعرفه. أظلمت الـدنيا فسـترته فـى طياتها... تأخرت بنت الكلب!... هل لن تحضر؟... هدأت حركـة المارة فى الشارع مما يبعث على الاطمئنان... خطر له أن يـدخِل العربة إلى الخرابة ليسترها عن العيون... لكنه لم يستمرئ فكرة أن يكون صابر على مقربة منه عندما تجىء دلال ويختلى بها.

فجأة ظهرت دلال تتهادى على البعد فعربد قلبه فـى صـدره... شعر أنها تتلكأ فى مشيتها فشاط... اعملى لكِ هِمة يا بنت الكلب!... خلينا نتستر فى الخرابة قبلما يشوفنا أحد. اقتربت فاتضحت معـالم

البسمة وهى تملأ صفحة وجهها. مد يده فأخذ الشنطة مـن العربـة بعصبية وسحب دلال من يدها إلى الخرابة بقوة.

قالت له بتخابث ممتزج بالدلال:

- مالك مستعجل!... بالراحة!.

مد لها يده بالشنطة فأخذتها منه فرحة وتفحصتها مستطلعة.

- الله!... زى بتوع السيما... يا حلاوة!

علقتها فى كتفها تجربها ثم أمسكت بها فى كفها وقالت:

- كده أحسن... فاضل الكعب العالى.

- هل أعجبتكِ يا دلال؟.

- حلوة قوى... ربنا يخليك لى.

قالتها بفرحة وهى تتدلل بابتسامة ذابت لها بقايا حافظ. سـحبها من يدها فجأة واحتضنها فتأوهت وهى تتمنع بتسليم:

- لا يا حافظ... حد يشوفنا... اعقل يا مجنون...

قبل أن تكمل كان قد احتواها بقوة. قبّلها فأسكتها إلا من التـأوه المغناج الذى توهج فى لمح البصر. مال بها حتـى خـرت علـى الأرض وهو ملتصق بها وقد طاش منه كـل إدراك. تَقَلَّبـا علـى الأرض هنا وهناك كأنما يقتنصان ضالة مراوغة تتأبى عليهما بـين العتمة التى اكتملت. بدأ صراخها يتعالى فكتم فمهـا بكفـه خشـية الافتضاح رفع جلبابها بكفه الآخر وهو يلهث فهاله ما أحـس بـه. شعر بنار حارقة. جسد ساخن كـالفرن يتلـوى وينـتفض تحتـه

كالممسوس. كانت عارية تماماً تحت الجلباب. عرى جسدها تمامـاً وأمسك بثديها البض مشدوهاً. يملأ الكف... أين ثدى صفية من هذا الثدى الممتلئ؟!... نظر إليه بشهوة ثم لقمه بفمه ورضعه بـنهم... نَدت عنها ضحكة لعوب سكرى بالنشوة وقالت:

- ناقصك رضاعة يا حافظ!... ألم ترضع وأنت صغير؟!...

قبل أن تكمل كان قد التحم بها مقتحماً أنوثتهـا بعنـف اشـتياقه ورغبته المحرومة... تأوهت بتناوٍ... اقتربا من الذروة ووصـلاها معاً... لم ينفصلا... أكملا... تلوت والإثارة تزدهر داخلهـا مـرة أخرى... نظر إليها بزهو الفاتحين وهـو مشـتعل بالرغبـة هـو الآخر... قبلها بنهم. بادلته قبلاته كالغائبة عن الوعى، قالت له فجأة بصوت خافت ورغبة متهتكة:

- حافظ... اضربنى...

لم يصدق أذنيه... اشتعل لكنه تحشم... لم يتجرأ... بدلاً من ذلك جذب ضفيرتها بقوة فصرخت:

- كمان... شد كمان يا حافظ... اضربنى فى عرضك...

راقت له الفكرة بتكرار طلبها فصفعها بكفه صفعة غير قوية.

اشتد احتدامها فصرخت مستغيثة:

- اضربنى جامد... جامد يا حافظ...

تجرأ فواصل صفعه لها... كلما ازداد الصفع شدة ازدادت هـى توهجاً واشتعالاً واندفع هو فى سعية لبلوغ المستحيل.

(٥٢)

كانت رأسه تدور وهو عائد إلى العِشـة... لـم يتخـذ مسـاراً مباشراً... كمن يريد فسحة من الوقت ليستوعب ما جرى... تـرى أهو حلم... أم علم؟!... راح فى خدر غَيبه عمـا حولـه... أخـذ يسترجع كل تفصيلة مما حدث... يحاول ألا تفوته هفوة أو إيماءة... ولا حتى طرفة عين... تراءى وجهها أمام عينيه... نظراتها وهـى تستعطفه أن... يا عيب الشوم!... عمرى مـا رأيـت مثـل الـذى حدث!... هل يوجد فى الدنيا نسوان بهذا الهيجان؟!... يا خرابى!... جسمها مولع زى النار... والنهد يملأ الكف ويفيض... لكن كيـف حدث كل ذلك؟... لم تمانع!... وكانت تلبس الجلابية على اللحـم... كأنها جاءت مستعدة... هل كانت تنوى فعلاً...؟!... لا يا رجـل... حرام عليك... وهل تفكر الآن فى الحرام؟!... أستغفر الله العظيم... ماذا حدث لى؟!... يا عيب الشوم!... بأى وجـه سـأواجه صـفية الآن؟... كيف سأجرؤ على النظر إلى عينيها؟... إخص عليـك يـا حافظ!... هل هانت عليك صفية؟!... لكنها كانت حاملاً والآن فـى فترة النِفاس... يا سلام!... وما ذنبها هى؟... ألم تكن حـاملاً فـى ضناك؟!... وأنت تلعب بذيلك فـى أول فرصـة!... مـاذا أفعـل الآن؟... لا أستطيع أن أريها وجهى... أحسـن حاجـة ألا أعـود

الآن... سأتأخر حتى تنام... الصباح رباح... يا ستار يارب!... شعر بانقباض واسودت الدنيا فى وجهه... ارتوت الرغبة وانطفأ الجسد فهب الوعى وتيقظ العقل... استعادت الكوابح هيمنتها التى فقدتها أمام انفلات الغريزة ورهافة الروح.

تأخر حتى غلبه الحنين للعودة... والدفء... والأمان. شعر بالإرهاق فاندفع عائداً بالقصور الذاتى. فوجئ بصفية مستيقظة تنتظره.

- خير يا حافظ!... أقلقتنى عليك.

سكين انغرس فى قلبه. تلعثم مجيباً بعناء:

- أبداً... كنت فى القهوة و... افتكرتك نمتِ.

- وهل سأنام قبل أن أطمئن عليك؟!.

يادى المصيبة... ارحمينى الله لا يسيئك... لو كان ربنا يأخذنى!...

- سِلمتِ يا صفية... ادخلى لتنامى.

- هل أُحضر لك العشاء؟

- أكلت لقمة فى القهوة.

انسحبت بهدوء وجلس حافظ يلهث بالحيرة والتوهان.

(٥٣)

أخذ نديم يصيح منادياً حافظ بحماسة:

- يا حافظ... يا حافظ... لقد كسبت البريمو... هيا بسرعة.

كان قد ترك ورقة اليانصيب عند نديم بالكُشك، حتى لا ينكشـف أمره إذا فازت واضطر لاقتسامها مع دلال حسب الاتفاق. قـرر أن يضع نصيبه من الفلوس عند نديم بعد سداد دينـه لـه... الآن قـد فضحه نديم أمام صفية... كيف سيتصرف؟!...

قال له نديم:

- هيا بسرعة لتصرف المكسب.

تدخلت صفية:

- سنجىء معكما أنا والأولاد. وسأصـرفها أنـا، علـى وجـه خيرية... لأن الخير جاء معها.

ركبوا جميعاً العربة وقال حافظ لنديم:

- دِلّ أنت صابر على الطريق، فأنا لا أعرفه.

ساروا مدة طويلة حتى وصلوا إلى منطقـة لا يعرفهـا حـافظ. أخذت صفية الورقة وقالت لهم:

- انتظرونى هنا جميعاً، خذ بالك من العيال يا حافظ.

دخلت إلى مبنى فخم. جلسوا ينتظرونها فى الخـارج... مـرت ساعة... ساعتان... ثلاثة... لم تعد صفية... ماذا جرى؟!... لعـب الفأر فى عِب حافظ فقال لنديم:

- خذ بالك من الأولاد وسأذهب لأرى ما حدث.

عاد بعد قليل يولول ويقول بعد أن بحث كثيراً:

- إلحق ياسى نديم... صفية هربت بالفلوس... قالوا لـى لقـد صرفت الفلوس ومشت من ساعتها.

نهره نديم وقال:

- اعقل يا حافظ... سأذهب أنا للبحث عنها.

عاد بعد مدة وقال له:

- لقد قلبت الدنيا بحثاً عنها... تقول فص ملح وذاب!...

سأله حافظ ببلاهة:

- طَيب، وما العمل؟

- نبحث عنها فى كل مكان... لابد سنجدها... أين ستروح؟!...

ظلوا يبحثون ويبحثون ويبحثون... العيال تبكى وهم يبحثـون... ذهبوا إلى العِشة والكُشك يبحثون... سافر حافظ إلى شبرامنت وقها ليبحث عنها عند أهلها وأهله... ظل يبحث ويبحث وهو يبكى بحرقة ويقول... يا ترى أين أنت يا صفية؟!...

- اسم الله عليك يا حافظ!... خير كفى الله الشر!...

هزته صفية وهو ينتفض هازياً... ياترى أين أنت يا صفية؟!...

تنبه من نومه مذعوراً وانتفض جالساً وهو يتمتم:

- بسم الله الرحمن الرحيم... اللهم اجعله خيراً...

ابتسمت صفية وسألته بدلال:

- هل كنت تبحث عنى فى الحلم يا حافظ وأنا راقدة جنبك؟!...

أطرق ساهماً.

نهضت صفية وأعدت له الإفطار والشاى ثم نادته.

(٥٤)

تناول الشاى ولم يجد فى نفسه شهية للإفطار. لملم نفسه بصعوبة وغادر العِشة هارباً من مواجهة صفية وهو يزفر بالضيق. لم يجـد فى نفسه القدرة على النداء... اختنقت الكلمـات بحلقـه... كيـف سيسعى الواحد على رزقه وهو على هذه الحال؟!... أخـذ يجـوب الشوارع صامتاً. عرج على القهوة وطلب واحد شاى... ملعون أبو الشُغل... رويداً رويداً تراءى له طيف دلال مرة أخـرى... غيـر واضح المعالم فى البداية ثم بدأ ينجلى... تباعـدت صـفية دون أن ينتبه، وإن ترددت على مخيلته بين الحين والحـين... دلال... مـا أشهاها... يسيل لها اللعاب... حلوة وملتهبة... وصفية!... صـفية ست الدار... طيبة وبنت حلال... عِشرة على الخير والشر... مـا العمل فيما وضعت نفسك فيه؟!... الصدر ضيق والرأس تـدور... يتأرجح كالبندول بين طيف دلال وواقع صفية... تسـحبه الغوايـة وينقبض منه الصدر... طالت القعدة فهدأت النفس قلـيلاً... شـعر بالجوع... نوارة... يا سلام... ساندوتش فول من يـديها... شـغل نفسه بفكرة الذهاب إلى نوارة للأكل. دفع الحساب ونهـض بهمـة. كأنما يريد الهروب من أفكاره التى تعصف برأسه. قفز على العربة

وانطلق إلى موقف الأتوبيسات حيث نوارة، التى طلت فى مخيلتـه كمخرج محبب من ضائقته وارتباكه الذى لا يرى له حلاً يريح.

أكل وشبع... شرب وتجشأ... ظل بعدها يهيم على وجهه حتـى المساء. عاد متأخراً إلى العِشة وهو يتمنى أن يجد صـفية والأولاد نائمين.

(٥٥)

كانوا فعلاً نائمين والصمت يخيم على العِشة. صوت وصوله نَبه صفية فأيقظها نصف يقظة. سألته بصوت نعسان:

- أقوم لأحضر لك العشاء؟.

طبعاً هذا آخر ما يريده حافظ... تنام أحسن. أجابها على الفور:

- خَليكِ نايمة... لقد أكلت.

- طَيب... تصبح على خير.

استدارت ونامت سريعاً فحمد ربنا وهو يتنهد ويخرج مسـرعاً. وقف فى حلْكِ الليل أمام العِشة يلتقط أنفاسه. استدار بعـدها ودخـل إلى ركنه الحميم. تمنى أن يدير الفونوغراف ويضع اسطوانة تُسرى عنه، لكنه عاد وأحجم كيلا تصدر عنه أية ضجة قد توقظ صفية.

جاءه زبادى يتمسح به. ربت عليه فسكن إلى جواره قليلاً ثم نهض وعاد أدراجه خلف الحاجز لينضم إلى صفية والأولاد ويشاركهم النوم. العائلة تنام فى اطمئنان وسكينة وهو الذى يؤرقه السهر على حاله. صابر أيضاً مستيقظ.

نظر إلى صابر وتمنى أن يسمع شيئاً منه يؤنس وحدته. لا يجد فى نفسه الشجاعة للفضفضة مع نديم. تمنى لو استطاع أن يحكى له حكايته مع دلال، لكن الخجل يلجمه. نديم يعز صفية ولن يقره على ما فعل. الوحيد الذى حضر الواقعة هو صابر... ليته يتكلم معه... سأل هامساً:

- أنت غضبان منّى يا صابر؟!... لماذا لا تكلمنى؟... سأجن بمفردى... أريد أن أتكلم... أن أحكى... يا صابر أنا ضعفت... ومازلت ضعيفاً... ماذا أفعل؟... ألم يخلق الإنسان ضعيفاً؟!... ستقول لى يجب أن نمسك أنفسنا... طيب أنا موافق... لكن ممكن ننجح وممكن نفشل!... وأنا ضعفت... البنت حلوة ولحست عقلى... وهل هى حلوة بعقل؟!... دى صاروخ... وأنا لست ملاكاً... تَكلم يا أخى!... اسمع... سأحاول أن أقاومها الأيام الجاية... مبسوط يا عم... لا تسكت هكذا... سأقوم لأصلى ركعتين ثم أنام بعدها... وربنا يسامحنى... لكن فليبعدها عنى... أنا لا أضمن نفسى...

فى الصباح، كانت حاله أفضل من اليوم السـابق. تمكـن مـن الجلوس مع صفية حول الطبلية ومشاركتها الإفطار. سحب يوسـف وأجلسه فى حضنه... لقطة تلقائية... يوسف فـى حضـن حـافظ وخيرية فى حضن صفية، وحولهم تدور ضلْمة طالبـة مـا تأكلـه وزبادى ينظر إليهم بمودة.

أكل وشرب دور شاى قبل أن ينزل يوسف من حضنه ويـنهض ليبدأ يومه. ربط صابر بالعربة بينما يحوم حوله زبادى وضلمة. قفز على العربة باطمئنان ثم داعب صابر باللجام وهو يقول:

- اقعدى بالعافية يا صفية.

جاءه صوتها من داخل العشة:

- ترجع بالسلامة يا غالى.

كلمات عذبة، لكنها معذبة فى آن واحد، كأنها نصل ينغرس فـى الأحشاء.

انطلق فى طريقه إلى كشك نديم ليقرأ معه الجورنال. عوده نديم أن يقرأ معه عناوين الجريدة والبخت ثم استرسلا مع الوقت ليقـرآ صفحة الحوادث وبعض أخبار الدنيا الهامة. بدأ حافظ فـى تـدريب نفسه على قراءة عناوين المحلات، ببطء أولاً ثـم بسـهولة أكثـر تدريجياً، صيدلية شهاب، ألبان دمياط، بقالة الأمانة، مستشفى عبـد

السميع التخصصى، غسيل كلوى بأسعار لا تقبل المنافسة، وأشـياء من هذا القبيل.

(٥٧)

ناداه أحد الزبائن ذات صباح وعرض عليه بعض الكراكيب مع مجموعة من الكتب القديمة. أصبح حافظ يقبل على شراء أى كتـب قديمة دون أن يهتم بفرزها كما كان يفعل فى السـابق. فـتش فـى الكراكيب، كرسى قديم مخلع وقصارى زرع بلاستيكية، إلى جانـب بطارية سيارة مستهلكة ومجموعة زجاجات فارغـة. سـاوم علـى البيعة ودفع للرجل ثم حمل البضاعة ونزل.

وقف أمام العربة يتصـفح الكتـب، بعـض الكتـب الصـفراء بالأفرنجى، تذكر الأجندة الأنتيكة التى قرأتها لهما جارة نديم. وجـد بين الكتب بعض الكتب الملونة والمكتوبة بخط واضح كبيـر. قـرأ المكتوب على الغلاف، قصص للأطفال، فرح بها وقال مبتسـماً... أنا الآن طفل فى التعليم، ستنفعنى.. قرأ عنوان أحـدها... الأميـر المسحور، قرأ العنوان التالى... بطة وأخواتهـا السـتة... الله... دا كنز... سأقرأ هذه القصص ثم أحكيها ليوسف وبعده لخيرية عنـدما تكبر... يجب أن يذهب يوسف إلى المدرسة... وخيريـة أيضـاً... ضرورى أن يتعلموا حتى لا يصبحوا مثل أهلهم فى قلة العلام... لو

قدرنى ربنا فسوف أُدخل يوسف الجامعة... يطلع دكتور أو مهندس قد الدنيا... يا سلام!... لو ربنا يحقق أملى. قفز على العربة فَرِحـاً وانطلق مشغولاً بأحلامه للمستقبل... يوسف فى الجامعة... وخيرية أيضاً... لكن الزواج ستر للبنت... بلا ستر بلا قَرف... تتعلم أولاً، وبعدها تتزوج رجلاً متنوراً من ثوبها... الدنيا تتغير، لازم أن نتغير نحن معها أيضاً.

أكمل دورة النهار وفى طريق عودته فى المغـرب قابـل دلال خارجة من أحد الشوارع أمامه. خفق قلبه بعنف وجف حلقه.

سألته بعتاب:

- أين أنت منذ مدة؟

أجابها متلعثماً:

- أبداً... موجود... أسرح على رزقى فى الشوارع.

فاجأته بسؤالها:

- ألم أوحشَك؟

تلجلج يبحث عن الكلام ثم أجابها:

- طبعاً طبعاً... أوحشتِنى.

- أم نسيتنى بسرعة؟!

استرد أنفاسه فأجابها:

- وهل ما كان يمكن أن ينسى؟!.

رقعت ضحكة مغناجاً وقفزت فوق العربة إلى جواره.

سألته:

- ألم تكشف على ورقة اليانصيب؟

- نسيتها عند سى نديم.

- يا رجل... دا اسمه كلام!.

- وهل كان فى عقل؟!

- لماذا يا ترى؟

- العتب على اللى كان السبب.

ضحكة أخرى قادرة جابته الأرض. وجد نفسه متجهـاً بالعربـة صوب الخرابة التى شهدت ليلتهما الأولى... لم تمانع. وقـف أمـام الخرابة والظلام قد حل. سحبها من يدها فطاوعت. اسـتدار إليهـا فأشعلته ملامح الرغبة على وجهها... وكان ما كان.

(٥٨)

المرة الثانية كان وقعها أقل إرباكاً له بعد اللقاء وهو فى طريـق عودته إلى العشة... كان الليل قد توغل... الهدوء من حوله لا يسمع فيه سوى وقع حوافر حمار على أسفلت الطريق... لسعة هواء بارد لفحته... يا سلام على الدفء فى حضن دلال... دفء يغنـى عـن الغطاء والهدوم... لماذا لا يفعل الواحد ذلك مع امرأته؟!... يعاشرها ثم يستدير لينام حراً بمفرده... لماذا لا يسـتدفئ الرجـل بامرأتـه

وتستدفئ هى به؟!... هل لأنها دائمـا معـه؟... موجـودة عنـدما يريدها... تعود عليها... وهل سأزهد فى دلال إذا تعودت عليها؟... بنت الكلب صاحبة مزاج... تشعلل الرجل الذى معها... لكن لـيس من المعقول أن أستمر فى هذا الموال... وهل تستطيع مقاومتهـا إذا رأيتها يا ابن الكلب؟!... دا أنت ريقك جرى بمجرد رؤيتها.

وصل إلى العِشة منهوك القوى يتطلع إلى الاستلقاء على فرشته. تحرك بهدوء حتى لا يوقظ صفية... الحمد لله إنها نائمة... سـبحان مغَير الأحوال... زمان كنت تنعى هم أن تعـود فتجـدها نائمـة... تتمنى أن تكون مستيقظة لتتعشى معك... لتأخذ وتعطى معـك فـى الكلام... الآن تفرح لنومها... لا يا شيخ... يجوز بسبب نِفاسـها... هاهى كادت تُربعن بعد أيام... ربنا يستر!...

تسحب بهدوء، بعد أن أكل لقمة بشهية على الواقف، وتسلل إلى الفراش. راح فى النوم بمجرد أن حط بجنبه على الفرشـة. تغطـى وانكمش ليستدفئ وهو يستغرق فى النوم. حلم بدلال.

(٥٩)

فى الصباح تأخر نومه على غير عادته. نادت عليه صفية:

- يا حافظ اصح... قربنا علـى الظهـر... أنـت ناموسـيتك كحلى!... ما كل هذا الكسل؟!... لازم سهرت.

تمطأ حافظ فى فراشه مستمتعاً ببهجة اليقظة ودفء الفَرشـة... ملعون أبو الشقاء... لو كان الواحد اتولد ابن بك أو ابن باشا!. لماذا يضطر ناس للشقاء وينعم ناس بالهناء؟... لو كانت الأشياء معـدن، لكنت قد قمت على مزاجى زى أولاد الناس... أفطرت واسـتحممت فى البانيو وأنا أغنى... بعدها أفكر... ماذا أفعل؟... هل أذهب إلى النادى؟... أم أذهب إلى السبق؟... مثل فريد الأطرش فى السيما... أو أخطف رجلى إلى الإسكندرية... لوكاندة البـوريڤـاج... زى كمال الشناوى وفاخر فاخر... يا حلاوة يا أولاد... لماذا لا يعـيش كل الناس هكذا؟... الخير كثير واللى يصـرف يصـرف... آه يـا دنيا!...

نهض بتكاسل وخرج إلى صفية:

- صباح الخير يا صفية... حضرى لى لقمة.

- صباح النور يا حافظ... إيه النوم دا كله!... هل كنت سهراناً فى الكباريه؟.

قالتها بتهكم وهى تنهض وخيرية على كتفها، لتحضر لـه لقمـة يأكلها. نظر إلى المنبه أبوطاسة بتاعه فوجد السـاعة تقتـرب مـن الحادية عشرة. زلط اللقمة بسرعة وقضى حاجته ثم ربـط صـابر بالعربة وتوكل على الله.

بعدما توغّل فى شوارع مصر الجديدة، لمح فجـأة عليـاً يعبـر الطريق فنادى عليه فرحاً... يا على... يا على. توقف على وتلفـت ليرى من ينادى. قال له وهو ينزل من العربة:

- ألا تتذكرنى يا على؟... أنا حافظ... زميل الحجز فى القسم.

بدا عليه للوهلة الأولى أنه نسيه، لكنه تدارك وبش فـى وجهـه نافياً التهمة عنه:

- وهل هذا معقول يا رجل؟!... هـل ينسـى الواحـد زميـل المصايب؟.

- ما أخبارك يا على، وكيف أفرجوا عنك؟.

- الضابط ضربنى قلمين بعدما نسونى أسبوعاً فى التخشيبة، ثم صرفنى. يبدو أننى صعبت عليه.

تعجب حافظ:

- بالبساطة دى؟!... ألم تضبط متلبساً بالسرقة؟.

- أصل الست أرسلتنى إلى القسم مع البواب. الضـابط اغتـاظ وطرد البواب. قال له... أين المجنى عليـه؟. هـل سـرق منـك أنت؟!... الظاهر إن الست التى أرسلتك على رجليها نقش الحِنة... أمر بوضعى فى الحجز ونسونى أسبوعاً. عندما شـكوت أخـذونى للضابط، كان قد نسى الواقعة، قلت له مظلوم يا بك، ضربنى قلمين ثم صرفنى وهو يبرطم ويقول... أنا عارف الـبلاوى دى تنحـدف علينا من أى مصيبة!...

- والله مصلحة إن الست التى سرقتها أرسـلتك مـع البـواب وكسلت تروح تشتكى... ألم يكن من الأفضـل أن تكمـل جميلهـا وتسامحك؟!...

- كيف تسامحنى وقد صلبت رأيها وقالت للبواب... لازم تأخده للقسم... البلاوى دى لازم ينظفوا البلد منها.

ضحك من قلبه وأكمل:

- الحمد لله إنها جاءت سليمة فى الآخر.

- كيف جاءت سليمة، وقد سجنت أسبوعاً وضربت؟!.

- السجن للجدعان... على الأقل لم أنم جوعاناً.

- يعنى يهينوك باللقمة؟

- ألا نُهان وبغير اللقمة؟... ياعم قُل يا باسط!...

قفز حافظ على العربة ودعاه قائلاً:

- تعالَ نشرب شاياً فى القهوة بدلاً من وقفة الشارع.

- يا سلام لو ساندوتش مع الشاى.

- اركب... سنمر على موقف الأتوبيسات لتأكل أولاً، بتاع فول على مزاجك، بعدها نشرب الشاى معاً.

قفز إلى جواره وانطلقا معا يتسامران فى طريقهما إلـى نصـبة فول نوارة وأبيها.

(٦٠)

فى القهوة سأله حافظ:

- وماذا تنوى أن تفعل الآن؟.

- ليس فى يدى شىء لأفعله.

- ألا يوجد أى شُغلة يمكن أن تشتغلها؟

- إيدى على كتفك... أنا من إيدك دى لإيدك دى...

سكت حافظ وقد بان عليه الهم ثم سأله:

- وأين تنام؟.

ضحك على من قلبه وأجابه متهكماً:

- أنام فى أملاكى... كل الدنيا مِلكى... يعنى مثلاً... أنام يومـاً فى الخرابة... يوماً آخر تحت الكوبرى... أحياناً فى أى شارع على الرصيف، فى المكان الذى يجيئنى فيـه النـوم... فرشـتى الـدنيا وغطائى السماء والنجوم...

- وماذا تفعل فى البرد؟

- هَأو... أبرد وأتكتك.

صمت حافظ مهموماً وسرح بفكره... أيدعوه للنوم عنـده فـى العِشة؟... معقول يجيب رجلاً، مهما كان فهـو غريـب، وصـفية امرأته فى العِشة!... لا يصح...

سأله متحرجاً:

- أليس لك أهل؟

هز رأسه متأسياً ثم تمتم:

- يا عم حافظ!... والنبى لا تُصـحى المواجـع... دا تـاريخ طويل...

- يعنى مقطوع من شجرة!

- مقطوع وغير مقطوع...

- هل هى فزورة؟!.

- تركت أهلى منذ سنين طويلة... نسيت عددها.

- وكم كان عمرك وقتها؟

- اثنتى عشرة سنة... أو ثلاث عشرة... تقريباً.

- ولماذا تركتهم؟

- أمى ماتت وتركتنى أنا وأختى لأبى. تزوج بعدها وعشنا مـع امرأة أبينا فترة، بعدها هربتُ.

- وأختك؟

- لا أعرف عنها شيئاً.

بدا على ملامح حافظ أن الإجابة لم تَشفِ غليله. سأله:

- ولماذا هربت؟

- من معاملة امرأة أبى. كانت تشكونا لأبينا وتُقَسى قلبه علينـا. يضربنى كل يوم علقة موت، وتكمل على هى بعدما يخـرج لأكـل عيشه. قويت عيناها بعدما خَلفت ولدين وراء بعضهما. كان تسـعى لأن نطفش من البيت... خُلقى ضاق وطفشت.

وجم حافظ وبان عليه الأسى. قاطع على صمته قائلاً:

- لا تنعى همى، لقـد تعـودت علـى ذلـك... فيـك عشَـرة كوتشينة؟!...

(٦١)

تقدم حافظ فى القراءة والكتابة بخطى حثيثة. واظب على المرور على نديم يومياً لقراءة ما تيسر من الجورنال. واصل عادتـه فـى قراءة عناوين المحلات واليافطات التى يلقاها فى طريقه. بدأ يحاول بمفرده قراءة قصص الأطفال التى استلقطها من الزبون، ببطء فـى البداية، ثم اكتسب قدراً من السرعة مع الوقت. شجعه أيضاً أنه بـدأ يمارس دور الحكّاء مع يوسف، مما ملأه زهواً، فقد شعر بأنه يعلـم أشياء ويعلمها الآن لابنه، يفيده ويسليه. يتباهى أمام صفية وصـابر وهو يقرأ القصة على يوسف، الذى يبدو أنه لا يفهم كل ما يقرأه له، فيحاول أن يبسطه له.

ذات مرة سأل نديم بعد أن أنهيا قراءة الحوادث بالجريدة:

- هل السرقة دائماً حرام ياسى نديم؟

- طبعاً يا حافظ.

سرح قليلاً ثم سأله:

- وماذا يفعل الجوعان، خالى الشغل؟!

تحير نديم لبرهة ثم تلعثم قائلاً:

- يبحث عن أى عمل، مهما كان. أى عمل شريف.
- وإذا لم يجد عملاً؟
- يتحمله أهله حتى يوفّق فى عمل.
- وإذا كان مقطوعاً من شجرة؟
اغتاظ نديم من المحاصرة فأجابه بضيق:
- يروح يموت!.

(٦٢)

بين الانتظام والعادة، راح حافظ يعيش أيامه ولياليه. السعى على الرزق والاستسلام لإغراء دلال، مضاجعتها فى الخرابة ومعاشـرة صفية بعد ربعنَتِها. خفتت عذاباته بالاعتياد وانغمس فى لذاته لأذنيه، حتى أنه كثيراً ما تذكر دلال أثناء معاشرته لصفية، ذلك عندما كان يحتاج إلى بعض الحماسة والتحليق. دلال مولعة وأعادت صـياغة علاقته بالنسوان. فنونها فى مطارحة الغرام كانت تلقائية ومبتكـرة بالنسبة إلى ما مر به من خبرات معتادة... تقـول معجونـة بميـاه العفاريت!... كانت تشعل مكنوناته فى صحوه ومنامه. يتـيقظ مـن منامات الملتهبة بها فيسحب صفية، التى فى يديه وقتها، ينبهها مـن أحلاها نومة فتقول له معترضة... نام الله يهدك... قطعت نَفَسى... إيه اللى جرى لك الأيام دى!...

(٦٣)

قالت له وهو يحتضنها والجو منعش حولهما:

- حافظ... الظاهر إنى حامل.

وجم حافظ وانطفأت رغبته فى الحال... سألها بحيرة:

- ماذا تقولين؟!...

- العادة لها مدة غائبة، ونِفْسى غامة على على طول...

- يا نهار أسود!... وما العمل؟...

أطرقت دلال وملامح وجهها تشى بما يمكن أن يجيبه.

أعاد تساؤله بضيق:

- كيف سنتصرف فى المصيبة دى؟!...

نظرت إليه عاتبة باستنكار وقالت:

- تتزوجنى يا حافظ... تسترنى وتحافظ على ضناك.

يا نهار أسود ومنيل... هذه آخرتها... وماذا كنت تنتظر؟!... أنا عارف؟!... ها نحن وقد وقعت الفاس فى الـرأس... مـا العمـل الآن؟!...

- رحت فين يا حافظ؟!...

- رحت فى ستين داهية... سيبينى وحدى الآن... هيا بنا نمشى.

- على طول كده؟!...

نهض دون أن يرد عليها فتبعته صاغرة وهى تسوى هنـدامها. غادرا الخرابة واجمين وتفرق كلٌ إلى وجهته.

(٦٤)

مرت الأيام التالية على حافظ أسود من قرن الخروب. انسـدت نِفْسه عن الشُغل. أهمل لحيته وشحب وجهه. لم يتوقف رأسه عـن الفكر... غامت الدنيا أمام عينيه... مـاذا سـيفعل؟... دلال حامـل منه... ضناه فى بطنها... وصفية!... مـاذا سـيقول لصـفية؟!... طَيب... ماذا سيفعل مـع دلال؟... هـل يطلـب منهـا أن تُسـقط نفسها؟!... لكن هذا حرام!... مالك أنت والحرام؟!... لكنه روح... ترى فى أى شهر هى حامل؟... يا ترى ولد أم بنت؟... هـل هـذا معقول!... ربنا يرزقك بخيرية، فتقوم وتحبل واحـدة ثانيـة غيـر أمها... تريدنى أن أتزوجها!... يا نهار أسود يا نهار أسود... أروح أقول لصفية إنى سوف أتزوج عليهـا... واحـدة تانيـة وجـاهزة بحملها... يا صلاة النبى... دى صفية تموت فيها... طَيـب، ومـا ذنب الثانية؟... لكن... قد تكون دايرة على حـلّ شَـعرها!... لقـد فَرطت فى نفسها بسهولة... ومـن أدراك أنهـا لا تتشـرمط مـع غيرك؟!... يا رجل حرام عليك... هل الحق عليهـا إنهـا سـلمتك نفسها؟!... ألم يكن الأمر برغبتك أيضاً؟!... أنت مسئول معهـا...

جريت وراء شهوتك ولم تفكر... لو كانت دايرة على حلّ شَـعرها لكانت قد حملت من قبل... البنت أمامنا من سنين ولم يظهر عليهـا شىء... لا لا... عيب يا رجل!... البنت تحبك... ألم تر نظراتهـا لك... الحب باين فى عينيها... وتستسلم لك مثل جِتة الملبن... لكن الموضوع صعب قوى... هل ستتنكر لها؟... وهل هذه رجولـة؟... تعملها وتجرى!... أين النخوة؟... يا رب... ماذا أفعل؟...

(٦٥)

حارت صفية فى أحوال حافظ المفاجئة. حاله انقلـب. سـرحان على طول ونِفْسه انسدت عن الأكل... مهمل لحاله وحالته تصـعب على الكافر... المصيبة أنه لا يتكلم... كلما سألته مالك، يقول أبداً... مزاجى متعكّر... الشغل حالته بطالة... أحد أصحابى توفـاه الله... من هو؟... لا تعرفينه أنتِ... كلنا سنموت يا حافظ!... ربنا يرحمه ويرحمنا... لكن لا... قلبى غير مطمئن... فيه حاجة يخبئها عنّى... أنا قلبى دليلى... يكون عمل عملة؟!... لكن حـافظ طيـب وابـن حلال... دوغرى ويعرف العيبة... طَيب!... ماذا فى الأمـور يـا ترى؟!... ما الذى غَيره فجأة هكذا؟!...

(٦٦)

مر حافظ على نديم ليسرى عن نفسه معه وينسى بعضـاً مـن همومه. وجده فرحان ودعاه إلى زجاجة كازوزة وهو يقول له:

- هذه حلاوة نجاح محمد أخى فى الإعدادية.

- ألف مبروك ياسى نديم... عقبال الشهادة الكبيرة.

جلسا يتسامران فى أمور الدنيا وفجأة سأل حافظ:

- إلا قل لى ياسى نديم، هل يمكن أن يحب الرجل امرأتين فـى نفس الوقت؟.

ضحك نديم من قلبه وقال مازحاً:

- يمكن أن يحب عشر نسوان أيضاً.

- أنا جاد فى سؤالى ياسى نديم.

انتبه نديم والتفت إليه متسائلاً:

- ما حكايتك يا حافظ!... هل تحب على صفية؟

تلعثم حافظ وأجابه:

- لا أبداً... مجرد سؤال.

أخذ قعدته مع نديم ثم تركه وهو مشغول بمشـكلته لا يسـتطيع الفكاك منها. قرب الميدان قابلته دلال. قالت له:

- عاوزاك فى كلمتين يا حافظ.

- اركبى.

أخذها إلى جواره وحث صابر على الجرى بأسرع ما يستطيع... على الله ألا يرانا أحد... غريبة!... لماذا أشعر بالخوف اليـوم؟!...

لطالما ركبت جنبى... عمرى ما أحسست بالقلق... حقيقى... إلا ـى على رأسه بطحة يحسس عليها... ابتعدا عن العمار فسألها:

- خير يا دلال؟!...

- بطنى بدأت تكبر ولا أعرف ماذا سأقول لأبى!... أنا خائفة يا حافظ... اعمل معروف... شُف لك صرفة.

أطرق حافظ واجماً فقالت له بعد برهة:

- اعقد على ثم طلقنى بعد الولادة... إذا كنت لا تريدنى.

قالتها بدلال عاتب كان له وقع السكين على ملامح حافظ.

سألها بعد لحظة صمت:

- عاوزة حاجة تانية؟

- لا يا حافظ، عاوزة سلامتك... ابق اسأل على الله يسـ ترك... أنا ليس لى غيرك الآن.

أطرق حافظ خجلان ثم تمتم:

- ربنا يعمل ما فيه الخير.

تركها قرب الميدان وولى كالهارب. انطلق يذرع شوارع مصر الجديدة وهو تائه عما حوله... انتبه على صراخ المارة وهو يعبـ ر شريط المترو الذى كاد يدهسه.

انتصف الليل أو كاد وقد تثاءبت الدنيا حوله وهو جالس وحيداً لا يستقر على حال. ليلة صيفية صافية سماؤها، تطل منها نجوم الكون سافرة على خلق الله الساهرين... تطّلع حافظ إلى السماء كالملهوف وتنهد... تُرى كم من الساهرين مثله الآن، تسحقه هموم وأثقال تجعل الدنيا أمام عيونهم، على سعتها، أضيق من خُرم الإبرة!... حاول التفكير بهدوء فيما يجب أن يكون... صفية والأولاد... دلال... من فى بطنها الآن... الناس... الصح والغلط... الأصول... العِشرة... الضمير والعيب... الحلال والحرام... الرجولة والجدعنَة... الحق... كيف يتصرف؟!... أينكر أبوة الطفل؟... يترك دلال لحال سبيلها ويلتفت لأموره وأمور عائلته... وما ذنب العيل الذى مازال فى علم الغيب؟... وما ذنب دلال؟... هل تتحمل وحدها نتيجة الغلطة؟... ولماذا يعفى نفسه من الذنب؟... كيف سيقابل ربنا؟... ألا يكفيه غلطته معها فى الحرام؟... هاهى الفرصة ليغَير ما كان حراماً إلى الحلال... طَيب وصفية!... كيف سيواجهها؟... ما ذنبها هى الأخرى؟... لكنه المقدر والمكتوب... القدر وضعه فى هذه المحنة... يجب أن يتحمل نتيجة غلطته... كان من الأول العقل... اللى عاوز الدح مايقولش أح... أخذت مزاجك من البِنَية يبقى لازم تحميها وتصون ضناك... سأتزوجها... دا الواجب... لابد أن أواجه صفية... سأعترف لها إنى محقوق... إنى غلطت... لكننى أُكفر عن غلطتى... سأبذل كل جهدى لكى أُطَيب

خاطرها... وسأحاول أن آخذ بيدها لنعبر هـذه المصـيبة... لكـن الواجب واجب، والأصول أصول، مهما حدث لى ومهما تعبـت... سأعدل بينهما على قد ما ربنا يقدرنى... هذا هو القرار السـليم... سأفاتح صفية بكرة الصبح فى موضـوع حمـل دلال وضـرورة زواجى منها... وربنا يسامحنى...

(٦٨)

نام نوماً قلقاً مهموماً. فى الصباح، وبعد أن شرب الشاى وأكـل لقمة بالعافية ليفسح بعض الوقت لنفسه حتى يستجمع شجاعته، قـال لصفية وهما يتحلقان حول الطبلية:

- أريد أن اتكلم معكِ فى موضوع مهم...

التفتت إليه صفية مأخوذة وسألته:

- خير يا حافظ!

تلعثم وهو يلفظ كلماته بعناء شديد:

- أريدك أن تفهمينى جيداً... لأنى... الحقيقة...

- تكلم يا حافظ... شغلتنى!...

- أصل... يعنى لازم أن تفهمى قد إيه مقـامكم عنـدى، أنـت والأولاد... أقصد... لا تفهمينى خطأ...

- يادى المصيبة يا حافظ... تكلم وخلصنى!...

سحب نفساً عميقاً ثم زفره بيأس وقال يغالب نفسه بسرعة:

- لقد أخطأت يا صفية... أخطأت مع دلال بائعة اليانصـيب... وقد حملت منى... وطبعاً الأصول إنى أصـلح الغلطـة... يعنـى أتزوجها على سنة الله ورسوله حلاً للمشكلة وستراً لها... ولضـنايا فى بطنها...

نزل الكلام كالصاعقة على صفية فوجمـت للحظـات كمـن لا يصدق هول ما يسمعه، رقعت بالصوت بعدها قائلة:

- يادى المصيبة يا حافظ!... أتريد أن تتزوج على؟!...

قاطعها حافظ محاولاً تهدئتها:

- أنا لا يمكن كنت افكر فى الجواز... لولا مشكلة حملها...

صرخت فى وجهه مقاطعة فى ضراوة:

- مشكلة إيه ومصيبة إيه يا رجل يا نـاقص!... تتركنـى أنـا والأولاد وتروح تمشى على حلّ شَعرك يا رجل يا دِنى... حقيقى... صدق إللى قال... يا مآمنة للرجال، يا مآمنة للمية فى الغربـال... تريد أن تأتى لى بضرة شرموطة...

نهضت بعصبية وهى تحمل خيرية على كتفها وأردفت:

- والله العظيم ما أنـا قاعـدة لـك... رح للشـرموطة التـى ستتزوجها... أنا لست مقطوعة من شجرة... لى أهل وبيت يسـعنى أنا والأولاد...

نهض حافظ محاولاً إثناءها عن عزمها وهو فـى غايـة مـن الارتباك:

- اعقلى يا صفية... لا تخربى البيت.

- أنت الذى خربته... لقد بعتنى أنا والأولاد... لا عيشة لنا معك بعد الآن... ربنا ينتقم منك...

انخرطت فى عويل متفجع أليم أصاب حافظ بالشلل التام وأفـزع يوسف وخيرية فانفجرا فى البكاء وسط نباح زبادى المذعور.

(٦٩)

خَربتَها وقّعدت على تَلها يا اخويا!... مـا العمـل الآن؟... لـم أستطع منعها من المشى... كيف تَسمرتَ هكذا أمامها؟!... لقد كانت مندفعة كالريح... مثل زعابيب أمشير... لكنك لم تحاول... لعلهـا كانت تلين وتُحكم عقلها... من أجل خاطر العيلين... لقـد شـعرت بالشلل أمامها... كأنها واحدة ثانية!... غريبة عنى... ليست صـفية التى أعاشرها على الخير والشر... أو... كأنى أنا الغريب عنهـا... كأنه ليس من حقّى أن أطيب خاطرها... أن أستسمحها... كان مـن الضرورى أن أحاول... لكنى لم أقدر... الذنب ذنبك... لقد فكـرت فى دلال والعيل الذى فى بطنها ولم تفكر فى صفية وبيتها... هـل اندفعت فى قرارى؟!... طّيب كيف يرضى الواحـد الجميـع؟!...

ويرضى ضميره أيضاً؟... الزواج ليس حراماً... الشرع يقول ذلك... للرجل أن يتزوج أربعة... وسوف أعدل بينهما واللهِ العظيم... لكن صفية لها الحق فى أن تغار من زواجى... البنى آدم ضعيف... لا تريد أن تشاركها ضرة فى رجلها... مالها هى وما للشرع!... ستتمسك بما يعزز موقفها... ولن تعدلوا ولو حاولتم... حطّ نفسك مطرحها... يعنى إذا حطّت صفية عينيها من رجل ثانٍ... ماذا سيكون شعورك أنت؟!... حتى إذا كان إعجاباً عابراً... بشهامته أو رجولته أو أخلاقه... ألن تشعر بنغزة فى قلبك... الإنسان واحد والشعور واحد... لكن... لماذا شَرع الله للرجل الزواج بأكثر من زوجة، ولم يشَرعه للمرأة؟!... أستغفر الله العظيم... هل ستتدخل فى حكمة ربنا... الواحد كاد يكفر!..

كان حافظ قد تَسمر حائراً بلا حول ولا قوة أمام صفية وهى تجمع الهدمتين وتأخذ يوسف وخيرية معها مغادرة العِشة ودمعتها على خَدها... كان من الواضح أنه يتمنى أن يثنيها عن عزمها... أن يستعطفها... يستحلفها بكل ما بينهما من عِشرة ومودة... أيام ولحظات حلوة... حياة على الخير والشر... لكنه وقف مشلولاً عاجزاً كارهاً لنفسه وللعيشة، يتمنى من كل قلبه أن تنشق الأرض وتبلعه... يغض بصره استحياء ويسترق النظرات إلى يوسف وصفية وهى تحمل خيرية على كتفها، تسندها بيد وتجمع حاجياتهم باليد الأخرى والدموع تنهمر بغزارة على صفحة وجهها بألم

عظيم... فبقدر ما يكون المحبة والأمان، بقدر ما يتعـاظم الشـعور بالحزن والفجيعة فى القلوب السمحة الطيبة.

(٧٠)

جلس ساهماً بقية النهار، غير قادر على الحركة. لم يتمكن مـن النهوض لكى يسرح على رزقه على خلاف عادته. لا يذكر منذ متى مر عليه اليوم بطوله، وهو خامل فى عِشته بلا عمل. منـذ وعـى على الدنيا وهو يسعى منذ بداية النهار وحتى هبـوط الليـل، إلا إذا كان صابر مريضاً وهذا قليلاً ما يحدث. منذ بدأ مع المعلم سعد فى بداية حياته، ذلك الرجل الطيب الذى اتخذه صبياً له وعلمه تجـارة الروبابيكيا، وبعدها عندما استقل بنفسه. آه... أين أنت يا معلم سـعد الآن؟!... كنت أباً وسنداً وحامياً، لماذا لم يتخذ هو صبياً ليعلمه؟!... ربما لأنه لم يجد فى نفسه الثقة على القيام بدور المعلم، زمان كـان لكل معلم صبى، ولكل صبى معلـم. النـاس الآن تطلـع شـيطانياً كأعشاب الأرض التى تبرطع على هواها... وقد يكون الحال إن كل واحد يقول الآن ياالله نفسى... حتى أنا!... ألهذا السبب لم يجد على شغلاً والتفت للسرقة؟!... على رأى المثل... أنا كبير وأنت كبير... ومين يسوق الحمير!... كل واحد يلزمه من يعلمه ويقف معاه فـى زنقته... لو كان المعلم سعد يعرف ما جرى لى!... كانـت تبقـى

مصيبة... تُرى، لو كان المعلم سعد موجوداً، كنت عملت عملتى السوداء دى!... أنا لا يمكن أترك يوسف وخيريه يكبران بعيداً عنى... لا أريدهما أن يصبحا مثل على... ودلال... لا... سوف أدخلهما المدارس... يتعلمان ويتنوران... يرتقيان إلى مكانة أحسن من مكانة أهلهما... سوف آخذ يوسف معى فى إجازات المدرسة... حتى يتعلم معنى الشقاء ويفهم الدنيا... لكن لو ربنا يعدى الحكاية دى على خير!... يارب تكون العواقب سليمة... أنا غلطت وسوف أصلح غلطتى... قدرنى على تطييب خاطر صفية وعقلها حتى ترجع هى والعيال. حل الليل عليه دون أن يأكل لقمة... نفسه مسدودة وقلبه مكسور... لا يعرف ماذا يفعل... شله الارتباك والخوف من الآتى... نظر إلى ساعة الحائط متمنياً أن تنطق وتؤنس وحدته... تخرجه من وحشته... استرق النظر إلى صابر الصامت... لا يعرف لماذا يشعر بالخجل منه أيضاً؟... صابر لم يكلمه منذ مدة... ترى ما السبب؟... هل توقف عن الكلام؟... هل هو غضبان منه؟... أم هل كنت أنا مجنوناً، كما يقولون، وعقلت؟!... وهل ما أنا فيه عقل أم جنون؟... من الذى يمكن أن يحكم؟... من يمتلك الميزان؟... يارب خُذ بيدى...

نعس من التعب وهو جالس فى ركنه تتداعى فى رأسه أفكاره المختلطة الممزوجة بالهواجس. انتبه على ألم بظهره ورقبته من

جراء جلسته غير المريحة. اعتدل فى جلسـته وتنهـد ثـم نهـض متكاسلاً ودخل إلى فرشته والفجر يوشك أن يتبدى.

(٧١)

انتبه من نومه فى الصباح على وحدته فـى الفرشـة والعِشـة. عاوده الإدراك فاغتم لرحيل صفية والأولاد. خرج لقضاء حاجتـه وعاد متكاسلاً. أشعل الوابور ووضع البراد عليه. انتبه إلى أن عليه أن يضع الأكل لزبادى وضلمة وسعدية، إلى جانب صابر. يجب أن يحاب سعدية أيضاً. ضروعها منتفخة وهو ليس متمرساً على هـذه المهمة. يجب أن يتذكر جيداً كيف كانت صفية تحلبهـا. سـيحاول وأمره إلى الله. أحضر وعاء وقرفص إلى جوار سعدية. بـدأ فـى حلبها مستعيداً بذاكرته ما كانت تفعله معها صفية... رويداً رويـداً استطاع أن يملك ضروعها ويجعلها تَحِن بالحليب الذى تجمع شـهياً فى الوعاء. وضع بعضاً منه لضلمة وزبادى وشرب المتبقى. كـان الجوع قد بدأ يقرص بطنه. لم يأكل شيئاً منذ صباح الأمس. شـرب كوب الشاى وربط صابر فى العربة بعد أن أتم أكله ثم توكل علـى الله وهو يدفع نفسه دفعاً للسعى على رزقه.

مر على نديم بالكشك كعادته فى بداية كل صباح. بـادره نـديم بالتساؤل:

- أين كنت بالأمس؟

تلعثم فى الرد وهو يجيبه:

- كنت بعافية حبتين...

- سلامتك... شايفك زى الحصان!... على فكرة... البنت دلال بائعة اليانصيب سألت عليك البارح... قالت ستنتظرك بعـد صـلاة الظهر عند موقف الأتوبيس.

- أى صلاة ظهر!... أمس أم اليوم؟.

- طبعاً أمس... لماذا تسأل عنك؟... هل يوجد شىء بينكما؟.

ارتبك حافظ وهو يتردد فى الإجابة ثم استجمع شجاعته ونطق:

- الحقيقة ياسى نديم... أنا واقع فى مصيبة...

التفت إليه نديم بانتباه وسأله:

- خير يا حافظ!... ماذا جرى؟

- بصراحة... أنا غلطت مع دلال... وهى حامل.

تساءل نديم بفزع:

- حامل منك؟!.

أطرق حافظ وتمتم بخجل:

- نعم... حامل منّى...

- الله يخرب بيتك يا حافظ... كيف حدث ذلك؟

- بيتى انخرب خلاص ياسى نديم... صـفية أخـذت العيلـين وتركت العِشة عندما صارحتها بالموضوع...

خبط نديم كفاً بكف وهو يتساءل متعجباً:

- وماذا تريدها أن تفعل يـا ناصـح؟!... كـم أنـك مجنـون صحيح!... ألهذا سألتنى ذات مرة... هل يمكن أن يحـب الرجـل امرأتين؟!...

- غلطة ياسى نديم... كل الناس تغلط...

- دى غلطة زى وشك... غلطة عن غلطة تفرق!...

- أهو دا إللى حصل ياسى نديم...

صمت نديم يفكر متحيراً ثم سأله:

- وأين ذهبت صفية؟

- أظنها ذهبت لأهلها.

- وكيف تركتها تذهب بمفردها والأولاد معها؟

أطرق حافظ حائراً ثم قال بخجل:

- لا أدرى ماذا جرى لى!... كأنى كنت مشلولاً... لم أسـتطع التصرف.

ران الصمت بينهما ثقيلا، سأله نديم بعد برهة:

- وماذا تنوى أن تفعل؟

- والله ياسى نديم ما أنا عارف!...

- يجب أن تذهب لصفية طبعاً فى بيت أهلها... تكلم مع أبيها.

- صفية فى حالة ثورة والتفاهم معها صعب فى هذه الحالة.

- خلاص... انتظر بضعة أيام ثم اذهب لها.

لم يقرآ الجريدة يومها. وقع الخبر على نديم أربكه وشتت أفكاره. بدا على وجه حافظ سيماء الهم والحيرة. استأذن نديم فى الانصراف وقفز فوق العربة بفتور. تحرك مبتعدا وهو تائه عما حوله.

(٧٢)

مع أذان الظهر، وجد نفسه متجهاً إلى موقف الأتوبيسات بـدون انتباه. لم يشعر إلا عندما لمح نوارة منهمكة فى إعداد الساندوتشات للزبائن وعم جابر واقفاً إلى جوارها يحتسى كوب الشـاى ويـدخن سيجارة. خفق قلبه فلم يعرف لمن هذه المرة، لنوارة أم لدلال... هل جاء يبحث عن دلال دون أن يدرى؟... لقد قال له نديم إن الموعـد كان بالأمس... الله يخرب بيت مخك إللى أصبح سلاطة!... لخـبط الحاجات والنسوان فى بعضها... وقف أمام نصبة الفـول وصـبح على نوارة وعم جابر. طلب ساندوتشى فول ووقف يأكل وهو سارح مع أفكاره.

أكل وحمد وشرب من قلة عم جابر ونوارة ثم سرح على حاله. دار فى الشوارع كيفما اتفق دون أن ينادى أو يغنى كعادته. فكر فى الذهاب إلى القهوة ثم عدل. لا يريد أن يرى أحداً. شـعر بالتعـب فأوقف العربة إلى جوار الخرابة التى يلتقى فيها مع دلال، كما لـو

كان مجرماً يحوم حول مكان جريمته. نزل متثاقلاً ثم فرش فرشـة صغيرة إلى جوار السور ونام من التعب.

استيقظ على يد تدفعه برفق وهى تنادى عليه. انتفض مفزوعاً... إيه!... مين؟... تنبه لها... دلال!...

- خير يا حافظ!... لماذا تنام فى الشارع؟!.

- شعرت بصداع وكنت تَعباناً.

- سألت عليك نديم البارح.

- قال لى النهاردا، خير؟

- أبداً... كنت عاوزة أطمئن عليك...

كاد يقول لها إن صفية أخذت الأولاد وسابت البيت، لكنه أحجـم فى آخر لحظة... هل سيقول لها إنه تكلم مع صفية؟... ولمـاذا؟... هل نوى أن يعقد عليها بصحيح؟!... هل من المناسب الآن أن يقول لها إنه فاتح صفية فى أنه سيتزوجها؟... وهل قـراره نهـائى؟... وماذا بعد ما فعلته صفية؟... هل سيتراجع؟... أم...

- مالك يا حافظ!... سرحان فى إيه؟...

قالتها واقتربت منه بدلال الأنثى... تململت الرغبة داخله فجأة... نظر إليها متأملاً... جميلة بنت الإيه... ومغرية!...

- لماذا لا ترد على؟!...

قالتها هامسة... بدلال... اسم علـى مسـمى... امـرأة حتـى النخاع... لمحت عينيه فالتقطت مكنوناته بغريزة حواء... طرقـت الحديد وهو ساخن بنعومة... سلم واستسلم... سحبها من يدها إلـى

الخرابة... طاوعت منسابة... كان الظلام قـد حـلّ فـأطلق لهمـا العنان... التحما بضراوة يؤججها الاستخفاف بكـل همـوم الـدنيا ومصائبها... ياالله!... تخرب تخرب!... الموضـوع انفـتح علـى البحرى والدنيا تطربقت... خَلها بجميلة واللى يحصل يحصل!...

(٧٣)

قال لها الحبايب والجيران فى البلد:

- هل أنت عبيطة حتى تتركى له البيت وتمشى؟!.

علقت أمها الست بهجة وهى تمصمص:

- قولوا لها يا جماعة!.

- الواحدة منا لا تترك بيتها أبداً مهما حدث.

ردت صفية بانفعال:

- يعنى أنتظر الضرة وأقعد لها فى البيت لأرحب بها؟!.

- بيت إيه يا خايبة... الله الله على الجد... والله إن كانت تعتبـه تتكسر رجلها... يأخذ لها مطرحاً بعيداً عنكِ تعيش فيـه... البيـت بيتك يا أختى... حقا... بطلوا دا واسمعوا دا...

- لازم ترجعى بيتك...

- وكيف ترجع بعد أن تركت البيت؟.

- يجىء ليأخذها ورجله فوق رقبته!.

... وهكذا دار الكلام فى قعدات نسوان شبرامنت، بـين صـفية وأمها وحبايبهم... لا يرضى أحداً خراب البيوت!...

(٧٤)

عاد حافظ من لقائه مع دلال فى حال مختلطة، لا تفهم أهى نوع من البلادة أم اللامبالاة، أم هى نوع من هدوء الرضـى بالمقسـوم والتسليم به، أم هو إرجاء لكل شىء والانغماس فى أعماق اللحظة.

جلس وحيداً بالعِشة، يشعر بالجوع لكنه بلا همة لتدبير ما يأكله، لا يكاد يتحرك. جاءه هاتف فجأة وسط هذا الركود:

- قم واذهب لصفية يا عم حافظ... هاتها هى والعيال...

أحس أن الصوت لصابر... ياه يا صابر!... أيـن كنـت مـن زمن؟!... لماذا سكت طويلاً؟... وما الذى أنطقك؟.

- قم يا عم حافظ... لا تتأخر عنهم.

كرر الهاتف مِلحاً.

- ألم تَر غضبها وخروجها زى زعابيب أمشير؟!...

- عندها حقّ يا عم حافظ... صلح غلطتك...

- كيف يا صابر؟... وماذا أفعل بدلال وعيلها؟!...

- رجع صفية لبيتها وتزوج دلال فى الحلال... خُذ لها مطرحـاً آخر... لكن فلتعدل بينهما... لازم تحاول...

- وهل سترضى صفية؟.

- صفية عاقلة... سترجع معك... لكن بالراحة عليهـا... ولازم تحطها فى عينيك.

- ودلال؟!...

- لازم تتحمل نتيجة غلطتك.

- طَيب!... هل أعقد على دلال الأول، أم أعيد صـفية والأولاد الأول؟.

- استفتِ قلبك.

- ساعدنى يا صابر...

- استفت قلبك وتوكل على الله...

- لا إله إلا الله...

(٧٥)

جلس حافظ يفكر مهموماً طوال الليل... بماذا يبدأ؟... أيحضِـر صفية والأولاد أولاً؟... هذا إذا لانت ورضيت طبعاً... أم يعقد على دلال أولاً؟... وأين سيسكِنها؟... هل سيقدر على فتح بيتـين؟... إذا عقد على دلال أولاً، فسيكون الأمر منتهياً عندما يـذهب لإرجـاع صفية... هذا أفضل من إرجاعها قبل إتمـام الـزواج... ويكـون الموضوع مفتوحاً للكلام... الأفضل أن ينهى موضوع الزواج مـن دلال بسرعة، بذلك يضع صفية أمام الأمر الواقع... هـذا أحسـن حل... لابد من الذهاب إلى دلال غداً حيث تسكن مع أبيها... يقابـل أباها ويطلبها منه...

دلال تسكن مع أبيها عم عابد الخفير فى عمارة تحـت الإنشـاء بالنزهة الجديدة، يقوم هو بحراستها. تزوج أمها على كِبر، ومات ـت

ودلال صغيرة فشبت يتيمة الأم. لم يتزوج عم عابد بعـدها. سـعى على رزقه ينتقل من عمارة إلى أخرى ومن مقاول إلى مقاول آخـر ومعه ابنته دلال. تلعب حوله مع الصغار ومع عمال البنـاء حتـى شَبت وعَوت شغلة اليانصيب، التى عرفتها من إحدى قريناتها فـى الحتة. رحب أبوها بعملها وهو يقول لنفسه الإيد البطالة نجسة، كان فى الحقيقة يريد أن يبعدها عن جو عمـال البنـاء، حيـث بـدءوا يشاغلونها عندما شَبت واستدارت. البنت حلوة وفـايرة... وأيضـاً شقية. كان يخشى فراغها وتواجدها طوال النهـار وسـط العمـال، يحومون حولها وهى فرحانة بمشاغلتهم لها. صحة عم عابد سـاءت فى الفترة الأخيرة وأصبحت على قدّه، كما أن اللغط قـد زاد حـول البنت منذ لمحها أحد عيال الحتة الأشقياء وهى تخرج ضاحكة مـن بدروم العمارة وخلفها عفيفى الكهربائى... جرسها العيل وزفها زفة بجلاجل، حتى سارعت واختفت بعيداً عن العمارة تجنباً للفضيحة.

أغفى حافظ فى آخر الليل ونهض فى الصباح منتوياً الذهاب إلى العمارة التى تقيم فيها دلال وأبوها وإنهاء الأمر معهما. سيرتب معها ليطلبها من أبيها وخير اِلبر عاجله.

(٧٦)

توجه حافظ مبكراً إلى موقع العمارة تحت الإنشاء التى تقيم فيها دلال مع أبيها الخفير. وصل إلى الشارع ووقف بعيداً عن العمـارة

حائراً. تردد فى الذهاب للبحث عنها. من هو وماذا يريد منها؟. هل يقف بعيداً عن العمارة يراقب خروجها. فَضل الانتظار. لـم يطـل انتظاره ولمح دلال خارجة وقادمة فى اتجاهه.

تقدم إليها وقال بانفعال:

- لقد جئت لألحق بك قبل أن تسرحى باليانصيب.

- خير يا حافظ!...

تلعثم قليلاً ثم استجمع نفسه وقال:

- أريد أن أقابل أباك لأطلبك منه.

نَورت الفرحة وجه دلال وأخذتها المفاجأة، سألته بحماسة:

- والنبى صحيح يا حافظ!...

- هل هو موجود الآن؟.

ابتلعت ريقها وقالت له وهى تلتقط أنفاسها:

- اصبر يا حافظ... أشم نَفَسى من الفرحة.

- أريد أن أقابله.

- الآن وقت شُغل... تعالَ بالليل... سأتكلم معه أنا أولاً ليكـون جاهزاً عندما تحضر... أنا لى طريقة معه.

فكر حافظ قليلاً واقتنع بالتريث حتى المساء. قال لها:

- أفهميه أنى صاحب عيال وسأتزوجك على امرأتى.

- طبعاً يا حافظ... لهذا قلت لك تعالَ بالليل لتجده عجينـة فـى يدك... حطّ فى بطنك بطيخة صيفى... أبويا عاوز يسترنى ويخلص

من الهم. طول عمره ناعٍ لهمى منذ موت المرحومة... هـو أيضـاً صحته على قّده، وتعب من الشقاء.

استدار حافظ وهو يقول لها:

- سأمر عليه بعد المغرب.

انطلق مبتعداً وهو يفكر فى المرور على نديم لإبلاغه... يحتاج إلى سند يقف إلى جواره ويقتسم معه الهم فيما هو مقـدم عليـه... الناس تفرح عند زواجها!... لكن عندما يكون زواجاً عادياً... وليس لحل مشكلة... لكن البنت زى لهطة القشـطة... صـعب الواحـد يقاومها... تتلوى زى القرموط تحتك... أنت فى إيه ولا فى إيه!... التِهِ علىعينك واسكت... صحيح... أقرع ونُزهى...

توجه إلى كشك نديم ليبلغه بما انتواه وليفضفض معه قليلاً، لعل الرحى التى تجثم على صدره وتكاد تكتم أنفاسه تنزاح عنه، ولو إلى حين...

(٧٧)

سارت الأمور بسلاسة. البنت قالت لأبيها بطريقتها إنها تريـده، والأب يريد أن يستر ابنته التى جعلت عينيه فـى وسـط رأسـه... يعيش متوجساً ويتوقع فى كل يوم مصيبة لن يحتملها جسده الـواهن الذى يجاهد من أجل لقمة العيش... لولا كرم الحاج زين المقـاول،

الذى استقر معه منذ أكثر من خمس سنوات، لما أبقاه معـه، وهـو الذى أصبح صاحب مرض. يشعر بالتعب لأقل مجهود. قـال لـه الدكتور الذى أخذه إليه الحاج زين، ربنا يبـارك لـه، إن ضـغطه مرتفع جداً وأعطاه برشاماً. تنتابه أحياناً آلام زى السكاكين تـنهش فى صدره. يعانى أيضاً من وجع فى الركب وآلام فـى الظهـر... دائماً يقول لها متحسراً، نِفْسى أفرح بِعدِك واسترك قبلما أمـوت... هو أيضاً لاحظ عليها بعض التَغَيرات، لكنه كتم فى نفسـه وكـذب عينيه... ضحك على نفسه وتمنى من الله أن يسـتره ويسـترها... وماذا فى يده؟!... يتوجس من الدنيا فى مطلع النهار ويحمـد ربنـا على مرور اليوم على خير عندما يضع رأسه على الفرشة لينام.

اتفقا على كتب الكتاب يوم الخميس، يعنى بعد يومين وخير البِر عاجله. طلب الأب من حافظ أن يفرحوا بقعدة صغيرة قدام العمارة، يدعو إليها الأسطوات والعمال ويشربون الشربات. وافق حافظ على مضض، فقد كان يفضل أن يتم الموضـوع علـى الضـيق نظـراً للظروف.

أفهم حافظ دلال أنها ستقيم مع أبيها فى الأول، حتى يـدبر لهـا مطرحاً. الأب وافق وقال له، أنا عايش وحدى، وعلى الأقل تأخـذ بالها منى وتسلينى... هو طبعاً لا يريد أن يضع أية عراقيل، ونِفْسه ينتهى الأمر على خير... يفرش لها غرفة فـى أى شـقة بالـدور الأرضى مؤقتاً، بعد استئذان الحاج زين طبعاً. العمارة مازالت تحت

التشطيب، وأمامها على الأقل سنة حتى تنتهى وينتقلوا منهـا إلـى موقع جديد... إن كان لنا عمر.

(٧٨)

واللهِ ما أنا عارف... الواحد يفرح!... الواحد يحزن!... دلال فى ناحية... صفية الغالية ويوسف وخيرية فى ناحية... أيـن أنـا؟!... لمن أتبع؟... صعب!... لكن هل...؟... وكيف؟... حيران!... مـن يأخذ بيدى؟!... لا أستطيع أن... أفرح... طَيب على الأقل... ياه... وبعدها؟!...

(٧٩)

ذهب حافظ بصحبة نديم يوم الفرح. عقد عليها فى وسط النهـار وقام العمال باستئجار ثلاث دِست كراسى من محل الفِراشة، اشترى حافظ الشربات وأعطى الزجاجات لدلال لتَبله للمهنئين. كان حـافظ يتحرك كالمسير. يبدو تائهاً عما حوله وقليل الكلام.

سألته دلال:

- مالك يا حافظ؟!.

- لا أبداً... بالى مشغول حبتين.

قالت عاتبة:

- هل تتزوجنى من وراء قلبك؟.

أجابها بزهق:

- وبعدها لك يا دلال!...

هل ما فعله هو الصح؟!... ماذا سيفعل مع صفية؟... لكم اشتاق للأولاد... راحت رأسه تدور بالأفكار وهو جالس بين الرجال يتلقى التهانى وقلبه مهموم.

ليلتها ضاجع دلال بالعافية... كأنها ليست ليلة الدخلـة... لـولا شقاوتها وإغراؤها ما كان تحرك... ضاجعها واستدار... أثقل عليه الحزن طويلاً قبل أن ينام.

استيقظ مبكراً بشعور باستغراب المكان. تسحب وارتدى ملابسه فى هدوء ثم غادر ودلال مازالت تغط فى نومها. توجه إلى عِشّـته ليطمئن على صابر الذى تركه فيها مع سعدية وضلمة وزبادى.

شعر بالارتياح بمجرد دخوله إلى العِشة. صبح على صابر ثـم حاب سعدية ووضع الأكل للجميع.

(٨٠)

لم يصبر على الانتظار طويلاً للذهاب إلى صفية وإحضارها هى والأولاد من شبرامنت. بعد يومين من إتمام زواجه بدلال، ذهب إلى نديم بالكشك وقال له:

- أريدك أن تجىء معى اليوم لنصالح صـفية ونرجعهـا هـى والأولاد. لم أعد أطيق بعدهم أكثر من ذلك.

بعد الظهر، أغلق نديم الكشك وتوجه مع حافظ إلى شـبرامنت. كان حافظ خائفاً من المواجهة بعد العملـة التـى عملهـا... كيـف سيواجه صفية وأهلها؟... لكنها خطوة ضرورية... وهو يستأهل كل ما سيجرى له... على الله يكون عم عبد الرحمن واسطة خيـر ولا يعقد الحكاية... طَيب والخالة بهجة؟!... هل ستُعقل ابنتها؟!...

- أنا خائف ياسى نديم.
- بعد إيه يا حافظ!... على العموم، ربنا يقدم ما فيه الخير.
- هل تفتكر أنها ستعود معنا؟
- ربنا يسهل... قل يارب.
- يارب يا كريم!... بحق جاه النبى تسهلها معى...

(٨١)

وصلا فى المغرب. طبعاً الجو كان مكهربـاً رغـم الترحيـب المعتاد للضيف. جلسا مع عم عبد الرحمن وتـوارت صـفية عـن الأنظار هى والأولاد. بعد المجاملات والذى منه، قال نديم لعم عبـد الرحمن:

- لقد جئنا لنأخذ صفية والأولاد.

نظر عم عبد الرحمن نظرة متفحصة لحافظ ثم تساءل بعتاب:

- معقول هذا الذى سمعته يا حافظ؟!.

أطرق حافظ مهموماً ثم قال بأسى:

- لقد أخطأت يا عم عبد الرحمن... أنا أعترف بغلطتى... البنى آدم يضعف بعض ساعات... لكن لن يكون هذا على حساب صـفية وأولادها... أبداً... مشكلة انوجدت فيهـا وأنـا ملـزوم أحلّهـا... وأعترف بالذنب وأطلب السماح والمغفرة...

قاطعه عم عبد الرحمن:

- أستغفر الله العظيم... السماح والمغفرة من عند القوى العزيز.

وجد نديم أن دوره للتدخل قد حان فقال:

- نحن جئنا لنصلح يا عم عبد الرحمن. حافظ اعترف بخطئـه وشارى صفية والأولاد. لقد عقد على الست الثانية من أجل العيـل إللى فى بطنها. صفية ترجع لمطرحها ولن يكـون لهـا أى صـلة بامرأته الثانية. ستسكن فى مطرح آخر بعيد عن صفية، وصفية لن ينقصها شىء هى والأولاد.

سرح هم عبد الرحمن والحزن بادٍ على وجهه.

تساءل بعد برهة صمت مهموماً:

- وكيف سيتصرف حافظ بين البيتين؟!.

رد نديم على الفور:

- بيت حافظ مع صفية والأولاد. هذا لا يمنع أن يهـتم بالسـت الثانية ويشوف مصالحها.

تدخل حافظ متردداً:

- ربنا يقدرنى وأعدل بين الاثنتين.

رد نديم لينهى هذا الحديث الشائك:

- المحاولة مطلوبة، لكن بيت صفية هو الأصل.

هز عم عبد الرحمن رأسه بأسى وأطرق واجماً.

قطع نديم صمته متسائلاً:

- ما قولك يا عم عبد الرحمن؟.

- ماذا أقول؟!... أنا مغلوب على أمرى... الأحوال لا تسر، ولا أرضى بخراب بيت ابنتى... سامحك الله يا حـافظ!... أنـا كنـت أعتبرك زى ابنى بالضبط!... على العموم، اتركوا الموضوع يومين ثلاثة... سوف أتكلم مع صفية وأمها وربنا يعمل ما فيه الخير.

نظر حافظ لنديم حائراً... كان يود أن يأخذهم معه الآن.

فهم نديم فقال له:

- كلام عم عبد الرحمن معقول... ضرورى نعطيه فرصة.

تنهد حافظ مهزوماً ثم قال:

- طَيب... أشوف الأولاد.

قال عم عبد الرحمن وهو ينهض بحماسة:

- طبعاً تشوفهم... هاتى الأولاد يا أم مصطفى.

غادر حافظ شبرامنت كسيفاً منكسراً. امتنعت صفية عن رؤيته. كان يتعشم أن تعود معه هى والأولاد ويلتم الشمل مـرة أخـرى... المطرح مظلم من غيرهم... لماذا طلب عم عبد الرحمن المهلة؟... هل يمكن أن ترفض العودة؟... وما الحـل وقتهـا؟... يـا سـاتر يارب!... قلبى مقبوض... الظاهر إنى تسرعت فى حكاية زواجـى من دلال... وماذا كنت أفعل؟!... حامل وبطنها كبرت... الله يخرب بيتك يا حافظ... هاهو انخرب خلاص... وهل أنا أجرمت؟... لقـد حلل الشرع الزواج بأربعة... مثنى وثلاث وربـاع... الحكايـة لا يجب أن تصل إلى ترك البيت وخرابه!... يا أخى... انكسف علـى دمك... أليس من حقها أن تزعل؟... لكن كيف تعارض مـا حللـه ربنا؟!... طَيب... لماذا حلل الزواج بأكثر من زوجة؟... هل هـو ضد الستات؟! أستغفر الله العظيم... هل ستكفر؟... لابد أن له فـى ذلك حكمة... لو كانت الواحدة مؤمنة بصحيح، لما غضبت لـزواج رجلها... هذا هو الشرع!... لكنها أيضاً لا تريد أن يشاركها أحد فى رجلها... تماماً زى الرجل... وهل يقبل الرجل أن يشاركه أحد فى امرأته؟!... ما شعوره عندما يتخيل أن امرأته تنام فى حضن رجل آخر فى اليوم المخصص له؟!... لا طبعاً... الموت أهون... والست أكثر غيرة من الرجـل... كـن حقانيـاً... طبعـاً زواج رجلهـا سيوجعها... لكن للضرورة أحكام... عقلى سيطير!...

جلس حافظ فى الميكروباص سارحاً بفكره عما حوله.

قاطعه نديم:

- إيه يا حافظ!... رحت فين؟!...

تنهد حافظ وأجابه:

- فى الهم الكاتم على أنفاسى.

- شدة وتزول...

- قلبى مقبوض ياسى نديم... وخايف من الأيام الجاية...

- أنت أخذت خطوة ولازم تتحمل نتيجتها...

- عارف ياسى نديم... عارف...

- الحكاية صعبة... إن شاء الله خير!...

(٨٣)

عاد أولاً إلى العِشّة ليطمئن على صابر وسعدية وضلمة وزبادى، توجه بعدها إلى البيت الجديد. فراق صابر أيضاً حز فى نفسه كثيراً. لم يتعود على الافتراق عنه. يراه أمامه طوال سهرته وحتى ينام، وكلامه معه، الذى لم يصدقه كل الناس. لا يستطيع أن يأخذ صابر والعربة معه إلى المطرح الجديد... أين سيتركه بالليل؟... هل سيتركه واقفاً فى الشارع وحيداً حتى الصباح؟!... ودا اسمه كلام؟!... الشوارع ليست آمنة والعربات تبرطع فيها كالمجانين... ثم إنه يطمئن على العِشة فى وجود صابر فيها...

صفية والأولاد غير موجودين... يشعر بالأمان فى وجـود صـابر بالعِشة ليحرسها، وليأخذ باله من سعدية وضلمة وزبادى... الحيـاة كلها ارتبكت معه... نزوة قلبت حياته وأوقعته فى مشاكل لا حصر لها... اشرب يا خويا... مادمت شايله على كتفك وماشى.

وصل متأخراً فوجد دلال قد نامت. أراد أن يوقظها... يريـد أن يفرغ همه فيها... طظ فى كل حاجة... هـم بإيقاظهـا... تَحـرج خجلاً... ماذا سيقول لها؟!... اصحى نعمل واحداً!... نظـر إليهـا وهى مستلقية على فرشتها... تأمل جسدها... ساقيها العـاريتين... تحرك فى الغرفة قِلِقاً بلا حذر... كركب فى الحاجات وعمل دوشةً متعمداً... تقلبت فانتهز الفرصة وسألها:

- أنتِ صاحية؟!.

تمطأت وسألته وهى نصف نائمة:

- أنتَ جئت؟.

- قومى كُلى لقمة معايا... افتحى نِفْسى.

تثاءبت بعمق وهمت جالسة... نهضـت متكاسـلة وأحضـرت العشاء. طبق لوبيا أم عين سوداء باقٍ من الظهر وطبق جبنة قديمة وخيارتين جلسا يأكلان. سألته:

- أين كنت من الظهر؟

هل يقول لها إنه ذهب ليصالح صفية؟... تردد... شـعر بعـدم الرغبة فى فتح موضوع صفية... لا يريد أن يتكلم معها عن صفية،

ولا يتكلم أيضاً مع صفية عنها... شيل دا من دا يرتاح دا عن دا... سياسة لازم يأخذ باله ويتبعها من هنا ورايح.

أجابها بعد تردد:

- عند سى نديم... وبعدها رحت القهوة.

أنهيا عشاءهما وأطفآ النور. تمدد على الفرشـة فالتصـق بهـا وسحبها إليه. تأوهت وانكمشت فى حضنه... اشـتعل بالرغبـة... تقول جاهزة دائماً بنت الإيه... عراها وتعرى فى لمـح البصـر... راحا فى التحام عارم مستخف بكل ما عداه وناما كما ولدتهما أمهما طوال الليل.

(٨٤)

بعد انقضاء أقل من أسبوع عزم حـافظ أمـره علـى الـذهاب لشبرامنت. لعل عم عبد الرحمن يكون قد لـين دماغهـا وترضـى ترجع معه. قضى هذه المدة مع دلال، لكنه أفهمها أن الحال لن يدوم هكذا بعد عودة صفية والأولاد. قالت له، ساعتها يحلها ربنا، وهـى تتمنى ألا تعود أبداً...

كان عم عبد الرحمن محرجاً منه وهو يستسمحه فى مهلة أخرى، صفية حالتها صعبة خالص ونفْسها لم تصفُ بعد مـن ناحيتـك يـا حافظ... هذا ما قاله له وهو يغض الطرف. سأله حافظ:

- هل يمكن أن أتكلم معها؟

أجابه وهو يهز رأسه بالنفى:

- لن يفيد كلامك معها الآن، وقد يضر. الجرح مفتوح ولم يلتئم.

تنهد حافظ وسأله:

- وهل سيطول الأمر على دى الحال؟.

- الصبر مفتاح الفرج.

صمت حائراً ثم تساءل بعد قليل:

- متى أجىء لأخذها حسب فكرك؟

- أهلاً بك فى أى وقت... تعالَ بعد أسبوع أو اثنين.

- كثير يا عم عبد الرحمن!...

- صفية حالتها صعبة... والوقت يهدئ النفوس.

(٨٥)

تعددت زيارات حافظ لشبرامنت ولم تَلِن صفية. كـان جرحهـا عظيماً. هزلت وشحب لونها. لم تجف دمعتها... تسرح طويلاً ثـم تتمتم... الله يسامحك يا حافظ... دى آخرة العِشـرة. أمهـا تطيـب خاطرها وأبوها يكلمها والألم لا يخف.

مرت الأسابيع والشهور والحال على ما هو عليه. لم يتغير فـى الأمور سوى بطن دلال، التى كبرت حتى أشرفت علـى الوضـع. حالة حافظ كانت تصعب على الكافر. مشَتت وممزق بـين العِشـة والبيت الجديد. يعمل بالعافية ولم يعد يصدح بالغناء وهو ينادى فـى

الشوارع. كان نداؤه يصدر كسيراً حزيناً... إيلى... بيكيا... كأنه البكاء. تكاد تسمعه بالكاد... يجلس فوق العربة شارداً ويترك العنان لصابر يقوده حيث يمضى.

(٨٦)

إلحق يا عم نديم... صاحبك حافظ بتاع الروبابيكيا... صدمه المترو... هو والحمار...

جاء صبية الحتة يتصايحون فزعين إلى كُشك نديم ينذرونه بالخبر المشئوم. أغلق نديم الكشك على عجالة واندفع خلف الصبية يتبعهم حيث ينطلقون مدفوعين بذعرهم.

فى ميدان الحجاز، تجمهرت مجموعة من المارة حول المترو وتعرقلت حركة المرور. اندفع نديم بين المتجمهرين صارخاً بهستيرية... حافظ... أوسع له المتحلقون حول حافظ الملقَى على الرصيف... أدركوا أنه من طرفه. كان حافظ ممدداً بين الإغماء والوعى، يبدو عليه عدم الإدراك لما حوله، مشجوج الرأس والدماء تغطى وجهه، على مقربة منه يرقد صابر وقد تشوه تماماً وفارق الحياة، وبقايا العربة مهشمة... ماذا حدث؟!... كيف؟!... صدمه المترو... لم ينتبه لقدوم المترو وشرع فى عبور الميدان. صدم المترو العربة. كانت الإصابة مباشرة للحمار... تناثرت التعليقات...

قدر ولطف... كاد يروح فيها... لازم يروح مستشـفى بسـرعة... تبرع أحد أولاد الحلال لنقله بسيارته... قالوا مستشفى هليوبـوليس قريبة... ابعدوا يا جماعة... حملوه برفق إلـى السـيارة. أرقـدوه بحرص على الكنبة الخلفية. ركب معه نديم. شقت السيارة طريقهـا إلى مستشفى هليوبوليس والناس من حولها تخبط كفـاً بكـف... لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم!...

(٨٧)

فى المستشفى، احتاج جرح برأسه فوق الجبهة إلى خمس غُرز. لم تكن إصابة حافظ خطيرة، بعض الجروح والرضوض بجسـمه، إلى جانب الجرح القطعى بالرأس. استفسر نديم من الأطبـاء عـن السبب فى عدم وعيه الكامل فأفادوه بأنه مصاب بارتجاج خفيف فى المخ من أثر الصدمة، وأنه سيتماثل للشفاء فى غضون أيـام. كـان حافظ يهذى على الدوام مردداً اسم صابر.

تركه نديم فى رعاية المستشفى بعـد أن قـام الأطبـاء بعمـل الإسعافات الضرورية وأمروا بالراحة لـه. فكـر فـى أنـه مـن الضرورى إبلاغ زوجته وأهلها. استقل الميكروباص منتوياً الذهاب إليهم على الفور فى شبرامنت.

وصل إلى شبرامنت عصراً. انتحى جانباً بعـم عبـد الـرحمن وأبلغه بالحادث. نادى الرجل على ابنته وقال لها:

- حافظ حصلت له حادثة بسيطة وراقد الآن فى المستشفى.

تغير لون صفية وخبطت صدرها بلهفة:

- يا لهوى!... حادثة إيه ياسى نديم؟!.

استجمع نديم شجاعته وقال لها:

- حافظ بخير يا صفية. احتاج لخمس غُرز فى الرأس، وإن شاء الله يخرج من المستشفى بعد أيام.

قالت له متوسلة وقد انفجرت فى البكاء:

- لا تكذب على ياسى نديم.

- والله العظيم حافظ بخير.

- خذنى معاك أشوفه.

انبرى عم عبد الرحمن قائلاً:

- طبعاً يا صفية... هيا بنا فوراً... سأجىء معكما أنا أيضاً.

تركوا الأولاد مع الخالة بهجة وغادروا على عجالة فى طريقهم إلى المستشفى التى وصلوها بعد المغرب.

أمضت صفية الليلة إلى جواره بالمستشفى. راح حافظ فى نـوم عميق فلم يشعر بوجودهم من حوله. صفية تبكى على صابر وعلى حالها وحافظ يهذى باسم صابر وباسمها خلال نومه. تسمع هذيانـه فتنفطر فى البكاء. عاد أبوها متأخراً إلى شـبرامنت وتركهـا إلـى جوار زوجها.

فى الصباح، فتح حافظ عينيه... من؟!... صـفية!... حلـم ولا علم... أنا فين؟... نعس مرة أخرى وهو يتخبط فى متاهته... مضى النهار وهو بين الإفاقة العليلة والنوم المنهك، تتراءى خيالات صفية أمام عينيه. انتظرت صفية قدوم نديم إلى المستشفى وخطفت رجلها لتطمئن على سعدية وضلمة وزبادى بالعشة وترعى شئونهم.

ذهبت دلال إلى نديم بالكشك تستطلع أمر حافظ الذى لم يحضـر بالأمس. كان نديم فى زيارة حافظ بالمستشفى والكشك مغلقاً. وقفت تنتظره حتى أعياها الانتظار فعادت أدراجها حائرة... تـرى أيـن ذهب الرجل؟!... هل صالح امرأته الأولى؟... وهـل هـو معهـا الآن؟!... طيب يقول لى!... عجيبة!... يا الله... يغور هو وهى... ملعون أبوهما الاثنين. كانت تتابع محاولاته المتكررة للصـلح مـع صفية وعودتها إلى مطرحها فى صمت مشوب بالمرارة. تشعر بـه يحدس الأنثى كلما عاد إليها شارداً مهموماً.

تيقظ حافظ فى اليوم الثالث أفضل انتباهاً... تبين صفية بوضوح إلى جواره... نظر إليها بتلهف ثم غض الطـرف قبـل أن تلمـح نظراته... صفية هى التى إلى جوارى!... مـاذا حـدث لـى؟!... المترو!... أين صابر؟... هل أصبنا ونقلونـا إلـى المستشـفى؟... وصفية هى التى إلى جوارى!... يادى الكسوف!... ماذا أقول لهـا الآن؟!... لكن أين صابر؟... ماذا حدث له؟... لقد صدمنا المتـرو فجأة!... كيف لم أنتبه لمروره؟!... يارب يكون صابر بخير... من يدلّنى... لا أجرؤ على الكلام مع صفية... خجلان منها ولا أستطيع أن أريها وجهى... من يحضر لى نديم؟!...

عند حضور نديم، عرف منه بإصابة صابر القاتلة ورحيله عـن دنيانا فأطلق أنة لوعة موجعة بللت عيون صفية ونديم بالـدموع... صابر مات!... وأنا السبب... انتقام منى... يارب!... ما كل هـذا الذى جرى؟!... تلوى من الألم وانفطر فى نشيج أليم.

(٩٠)

جاء عم عبد الرحمن والخالة بهجة للزيـارة ومعهمـا يوسـف وخيرية. نهض حافظ من رقدته بفرح واحتضن يوسف طويلاً. طلب خيرية بلهفة فقربتها صفية منه وهو يحتضن يوسـف. قبلهـا مـن وجنتيها وجبهتها باشتياق... شعر أنه يقبل صفية ويحتضـنها فـى الأولاد. هما جزء منها ومنه معاً. حضورهما رطب أحزانه علـى

صابر بعض الشيء لحظتها. تجمع العائلة الصغيرة جميعـاً والتـى فرقتها الأيام طغى مؤقتا على لوعـة فقـد صـابر. دفء الونَسـة الحميمة، اكتمال الحنين بالتواصل، امتزاج وحدة الألم، كـل ذلـك جميعاً انصهر فى اللحظة وسكبها معه فى ألفة محببة، تطهرت فيها النفوس العاصية العصِية. تناسى حافظ وصفية لحظتها كل ما كـان من هم وكدر، لجزعهما مما يمكن أن يكون من فعل الأقدار المستبدة أحياناً.

جاء الطبيب للكشف على حافظ. قال له مازحاً:

- ما شاء الله... لقد ردت لك الروح.

تخضب وجه حافظ وتمتم بحياء:

- البركة فيك يا دكتور.

عَير له الجرح ثم قال:

- أعتقد أنك يمكن أن تخرج غداً، أو بعد غدٍ على الأكثر.

تهللت أسارير حافظ، سيغادر المستشفى ويخرج مرة أخرى للدنيا بعد تلك الحادثة العصيبة. بعد مغادرة الطبيـب أحـس بالانقبـاض فجأة... سيغادر المستشفى غداً أو بعد غدٍ... نعم، لكن إلى أين؟!... وماذا ستفعل صفية؟... هل ستلين وتعـود معـه؟!... أم سـترجع لعنادها وإصرارها بعد تماثله للشفاء؟...

قبل أن يغادر عم عبد الرحمن قال لصفية بحزم ودود:

- خذى الأولاد الآن وارجعى إلى مطرحك... الوقت تأخر ولابد أن يستريحوا... كفاية كده!...

أطرقت صفية ولم تُعلق. ودعهما عم عبد الرحمن وأخذ الخالـة بهجة عائدين إلى شبرامنت.

قال لها حافظ بصوت مرتجف بعد قليل:

- خذى الأولاد للعِشّة يا صفية... لقد تعبتِ معى... ربنا يخليكِ لى... أنا بخير الآن.

حملت صفية خيرية على كتفها وسحبت يوسف فى يدها. قالت له قبل أن تستدير لتغادر.

- عاوز حاجة قبلما أمشى.

- عاوزك بخير وسلامة يا غالية.

استدارت سريعاً لتخفى دمعة مكتومة غالبتها وهى تتمتم:

- تصبح على خير...

اختنقت الكلمات فى حلقها وغلبها الصمت المكلوم.

(٩١)

ياه... راحة ما بعدها راحة حلت بحافظ وهو يشعر بأن صـفية تصطحب معها يوسف وخيرية إلى دارها... دارهما معـاً... همـا والأولاد، وسكان الدار جميعاً... لكن غصة انبعثت مرارتهـا فـى الحلق... صابر المسكين!... ذلك الرفيق الحبيب... كانا معاً علـى

الحلوة والمرة... تسبب هو فى ضياعه... رحيله إلى الأبد... مـن سيؤنس وحدته على الطرقات وفى الليالى الموحشـة؟!... "ربنـا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا"... صدق الله العظيم.

ظل مستلقياً فى فراشه بين مرضى العنبر، لكنه منفصل عنهم فى عالمه الذى تزعزع... والذى يتمنى من كل قلبه أن يتمكن من ترميم ما تصدع من أركانه. لم تأت دلال إلى فكره... ولا ابنها الذى فـى بطنها... أو من الجائز أنه اجتهد لكى يبتعد عن التفكير فيهمـا فـى تلك اللحظات... فهذه ليلة خاصة، يشهد فيها رأب الصـدع الـذى تسبب فيه فى كيان أسرته الصغيرة. كان خائفاً حتى من التفكير فى حكاية دلال وحملها... كأنه سيرتكب خطيئـة بفكـره، يخشـى أن تقوض - ولا يدرى كيف - كل ما أكرمه به الله لحظتها من توفيق مع صفية، يشعر أنه مهدد، كما لو كان على كف عفريت.

(٩٢)

مرت دلال على نديم فى اليوم التالى لتستفسر عن غياب حـافظ. ترفق بها وهو يبلغها نبأ الحادثة. قال لها إن حادثة أدت إلى إصـابة حافظ ببعض الرضوض والكدمات، أخذوه بعدها إلـى المستشـفى لعمل الإسعافات اللازمة، وأنه احتاج إلى غُرز بسيطة فى جبهته... أردف فى التو... الحمد لله جاءت سليمة... لكن صـابر المسـكين

كانت إصابته شديدة وربنا افتكره... طيب أين حافظ؟!... خرج إلى بيته الأول مع امرأته.. هل صـالحها؟... جـاءت عنـدما علمـت بالخبر... آه... هكذا!... ومن أبلغها؟... واللهِ ما أنا عارف... كذبة بيضاء!... لكن كيف سيبرر إبلاغه الخبر لصفية فى آخـر الـدنيا، وعدم إبلاغه لها وهى فركة كعب منه؟!... صحيح!... لمـاذا؟!... هل هو متعاطف مع صفية أكثر من دلال؟... أم أن هذا هو المألوف بين الناس!... أن يتعاطفوا مع القديمة على حساب الجديـدة؟... ألا يقول الوجدان الشعبى... القديمة تِحلا... ولو كانـت!... لا داعـى للإكمال، فكلكم تعرفون... والملافظ سعد!

صحيح!... لماذا يتعاطف أغلب النـاس مـع السـت الأولـى ويتقرمشون للزوجة الثانية؟!... أم أن هذا افتراء على النـاس؟!... لأن المفروض أن الناس تَتبع الشرع. كثير من الأمور تسير عكـس ما يتوقعه المنطق السديد. يتوه الإنسان كثيراً بين الصح والغلـط... يأمل فى الصح... ولا يعمل به دائماً. كثيراً ما ينحـاز للغلـط، أو يستمرئ ما اصطُلِح على نعته بالخطأ... ينزع إليه، بل ويستمتع به، ولو إلى حين... وإن جئتم للصراحة، أليس الخطأ، فى كثيـر مـن الأحيان، أكثر إمتاعاً من الصواب!...

سألت دلال نديم:

- وكيف سأشوفه؟

- سأبلغه بسؤالك عنه، وسوف يمر عليكِ إن شاء الله بعدما يقوم بالسلامة ويشد حيله.

تساءلت بغيظ:

- يعنى أنا غريبة؟!...

- لستِ غريبة ولا حاجة، لكن لا تنسى حساسية الموضوع.

قالت بعصبية:

- أنا امرأته على سنة الله ورسوله.

- صحيح، لكنه تزوجك عليها... أنت ست وعارفة.

- قل له إنى على وشك الولادة... البارحة جـاءنى ألـم يشـبه الطلق.

- سأمر عليه الآن وأبلغه.

مشت دلال مهمومة... لم يشأ أن يبلغها أنه مازال فى المستشفى صحيح أنه على وشك الخروج، لكنه لا يريد المخاطرة بـذهابها... ساعتها تتلاقيان هى وصفية وتبقى مصيبة.

أغلق نديم الكشك وخطف رجله إلى المستشفى. انتهـز فرصـة ابتعاد صفية وأبلغه بمرور دلال عليه، وبأنها أبلغته أنها على وشـك الولادة.

ارتبك حافظ لوقع الخبر وشعر بالانقباض.

سمح الطبيب لحافظ بالخروج. قال له إنه لم يعد فى حاجة إلـى البقاء بالمستشفى، لكنه أوصاه بضرورة الراحة بالبيت لبضعة أيـام قبل أن يعاود العمل. يجب أن يشعر أولاً باسترداد عافيته كاملة، هذا مع الاهتمام بالتغذية الجيدة طبعاً.

خرج حافظ بعد أن قام نديم بدفع مصاريف المستشفى، قال لـه حافظ على استحياء، معى جزء من المبلغ الآن، وسوف أنزل السوق لبيع بعض قطع البضاعة الموجودة عندى بالعشـة. زجـره نـديم باستنكار... عيب أن تـتكلم فـى الفلـوس الآن، حمـداً لله علـى سلامتك... تردد لحظة ثم أردف... وعلى سلامة صفية والأولاد... غضت صفية الطرف وقد تخضب وجهها لملاحظة نديم.

استوقف نديم سيارة تاكسى وتوجهوا جميعاً إلى العشة. عقد نديم عزمه على توصيلهم والبقاء معهم لبعض الوقت، ذلك للمساهمة فى تجاوز حرج اللحظات الأولى لعودة صـفية بعـد طـول غيـاب، ولمحاولة ترطيب الجو.

قال لها بمجرد الوصول:

- مشتاق لكوب شاى من يدك يا صفية.

تحلقوا يشربون الشـاى وحـولهم يوسـف وزيـادى يـدوران ويتداعبان. تلفت حافظ حوله متأملاً، ضلْمة قابعة تراقـب المشـهد بانتباه وهناك على البعد تقف سعدية وهى تشخص برأسها إلى مـا حولها... لا ينقص مشهد الصحبة المكتملة سوى صـابر... قـاوم دموعه حتى الحافة ثم انهار ببكاء حار ونشيج مؤلم... ربـت نـديم

عليه مواسياً وهو يحدس ما زلزله. بكت صفية هـى الأخـرى... أسباب عديدة تدعو إلى البكاء... لكنها لحظة من التوحد للجميع فـى الحزن... ماعدا يوسف وزبادى اللذين بدا انهماكهمـا فـى فرحـة اللعب.

(٩٤)

تماثل حافظ للشفاء بعد أيام. كانت صفية تقوم على خدمته علـى أكمل وجه كعادتها. بدا لحافظ واضحاً أنها تفعل ذلك مـن منطلـق الواجب والأصول. كانت تتحاشى النظر إليه... تتجنـب نظـرات عينيه المختلسة... الحديث الضرورى فقط، تلبية نـداء أو احتيـاج لمساعدة. انطفاءة الحزن فى عينيها لم تكن تحتاج إلى كثيـر فطنـة لتبينها... هل عادت مرغمة؟!... تساءل حافظ والهم يعتصره... هل تبقى معه مغصوبة!... ومن سيغصبها؟... أبوها وأمها!... صـفية حرة ولا تخضع إلا بإرادتها... قد تخضع إلى حـين... لكنهـا إذا أرادت فعلت. الدنيا كلها لا تستطيع إرغامها على ما لا ترضـاه... تمنح بلا حدود، بكرم... بمحبة... كريمة نعم، لكنها عزيزة... كمـا أنها عصِية عندما تنتفض... أنا عارف كل هذا... وعـارف أيضـاً أننى عايش بها... لكنى ضعفت وكان من الضـرورى أن أتحمـل

بشرف نتيجة خطئى... لكن لابد أن أتحمل حزنها أيضاً... كل شىء بمقابل... وواجب على أن أواسيها... أن أدخل الفرحة إلى قلبها مرة أخرى بعدما كان... أن آخذ بخاطرها، وأن أنتبه معها لكل همسة... يارب... ساعدنى وخذ بيدى...

(٩٥)

- حضرتك سى نديم صاحب الكُشك؟.
- نعم... أى خدمة!.
- الست دلال أرسلتنى لأبلغك أنها ولدت وجابت ولد.
- متى كان هذا؟.
- البارحة، فى الليل.
- وكيف حالها؟.
- بخير الحمد لله. وصفت لى الكشك وطلبت منى إبلاغك.
- كتر خيرك... قل لها حمد الله على السلامة لحد ما أشوفها.

كانت دلال قد وضعت فى الليلة البارحة متأخراً. جاءها الطلـق حامياً وأرسلوا لإحضار الداية التى وصلت بعد ولادتها. قامت بعمل اللازم وقالت لها ربنا رزقك بولد زى القمر. رزق من عند ربنا.

تمتمت دلال بإعياء:

- خلاص، نسميه رزق.

أرسلت فى الصباح مسعد صبى النقاش ليبلـغ نـديم، بعـد أن وصفت له مكان الكشك. سألها مسعد:

- ألا تريدين أن أذهب إلى أبيه لأبلغه؟.

أجابته بزهق:

- اعمل زى ما قلت لك!...

(٩٦)

بعد الانتهاء من الإفطار، قال حافظ لصفية:

- ضرورى أن أفكر فى نزول الشغل. الحمد لله أنا أحسن الآن.

سألته صفية مترددة بنبرات يشوبها الحرج:

- وكيف ستنزل بدون عربة؟.

- والله ما أنا عارف!... لن أستطيع شراء حمار آخر...

- والعمل؟!.

صمت حائراً ثم قال بأسى:

- الظاهر إنى لازم أشترى تريسكل زى بقية الكار.

أطرقت صفية لهيبة اللحظة.

أردف حافظ بنبرات مختنقة:

- لقد كان صابر... يتكلم معى ويسايرنى... آه يا زمن!...

فرت الدموع من عينيه... تبعته صفية فى البكاء تأسـياً علـى ذكرى صابر.

يا أهل الله ياللى هنا... جاء صوت نديم مقترباً من باب العشة.. نهض حافظ مرحباً وهو يمسح عينيه... أهلاً ياسى نديم... تفضـل. دخل نديم وقاده حافظ إلى ركن القعاد. حيته صفية ثم رفعت بقايـا الطعام والطبلية. انسحبت وهى تقول:

- حالاً يكون الشاى جاهزاً.

انتهز نديم الفرصة وأسر إلى حافظ سريعاً:

- دلال ولدت البارحة.

- كيف عرفت؟!.

- أرسلت لى الخبر مع صبى يعمل بالعمارة.

ارتبك حافظ ونظر بحذر حوله متلفتا. لم تكن صفية فى مجـال نظره فقال سريعاً بصوت هامس:

- يجـب أن آتـى معـك الآن... بمـاذا سـأتحجج للخـروج المفاجئ؟!... نعم... سأقول لصفية إننى سأخرج معك لشم الهواء... كذلك... للسؤال عن شراء تريسكل بسعر مهاود... لقد كنا نتكلم للتو عن شراء تريسكل بدلاً من العربة...

جاءت صفية بالشاى. تركت الصينية أمامهما وانسـحبت لبقيـة شئونها. شرب حافظ كوبه سريعاً ونهض ليستعد للخروج.

تحايل حافظ على الأمر مع صفية كما خطط سـريعاً وخرجـا مسرعين بحجة شم الهواء وبحث أمر شـراء التريسـكل... كذبـة بيضاء أخرى تعين على استمرار الحياة بمآسيها ومشاكلها... ذلـك الاختراع المدهش الذى ابتكره الإنسان، فى حلوله المبتكرة، حتـى يساير الضمير، فيطمئن إلى مشروعية قصده وسلامة نواياه...

انتفض حافظ لدى اقترابه من العمارة. عربد القلب فى الصـدر وجف الحلق... لحظة عجيبة!... ابن جديد... بعيد عنه... شـراكة بينه وبين ست أخرى... جديدة عليه... دخلت حياته صدفة فقلبتهـا رأساً على عقب... ست أخرى ليست امرأته التى اعتادها وعاشرها وأعطته أولاده... أم طفله الجديد... كيـف سـيعيش الحكايـة؟!... سيزورها ويتركها كالغرباء!... ليعود بعد ذلك إلى بيته الأصـلى... لكن ليس كما كان!... الرجل الوحيد لبيت بعينه... هو الآن رجـل لاثنتين، ومن المفروض أن يكون لبيتين... واحد فى العلن للجميـع والآخر فى الخفاء عن الجميع إلا اسـتثناء... هـل سـتنفع هـذه الوصفة؟... وأين هو العدل؟!... من ذا الذى يقدر عليه؟!... من؟...

دخل على دلال أولاً وتنحى نديم متخلفاً فى الخارج. كانت تجلس على فرشتها وبيدها الولد. بشت لدخوله للوهلة الأولى ثم تصـنعت نظرة عاتبة مشوبة باللوم. قال لها فَرِحاً:

- حمدالله على سلامتك.

انحنى على الفور مادأ يديه بعفوية ليتسلم منها الولد الذى مدته له بتردد يشى بعدم اللهفة. قالت له بنبرة فيها من الاعتراض أكثر مما فيها من الود:

- حمدالله على سلامتك أنت!...

تلقف منها الولد وتطلع فيه ملياً. قبله وأعاده إليها.

سألها بود:

- ماذا سنسميه؟.

- أسميته رزق.

- الله... اسم جميل... وخير.

علقت بتهكم:

- الخير على قدوم الواردين!...

نغزته الملاحظة، لكنه تجاهلها وتدارك مسرعاً:

- لقد كدنا ننسى سى نديم... تفضل ياسى نديم.

دخل نديم متردداً. مد يده وسلم على دلال وهو يهنئها بالمولود.

نهضت مرحبة به وهى تقول:

- دقيقة واحدة أعمل الشاى.

قاطعها نديم:

- لا داعى للشاى... أنا مضطر للاستئذان... الكشـك مقفـول ولابد أن أعود سريعاً لفتحه.

حاولا استبقاءه لكنه أصر على الانصراف.

بقى حافظ ودلال وجهاً لوجه. سألته بعتاب:

- ألم يكن من الواجب أن تبلغنى بالحادثة وبإصابتك؟!...

- وهل كنت فى وعيى لإبلاغك؟!...

- وكيف أبلغت امرأتك الأولى؟!...

- لست أنا الذى أبلغها.

- ومن الذى يعرفها وأبلغها؟.

- سى نديم...

- الكذاب ابن الكلب!... لقد كذب على... قال لى بِمسكَنَة، واللهِ ما أنا عارف من الذى أبلغها!... طَيب!... حيروح منى فين؟!...

- عيب يا دلال!... نديم صاحبى وإيـاكِ أن تغلطـى معـه... الرجل كان محرجاً... ولا تنسى أنها زوجتى وأم أولادى!...

- نعم يا روح أمك!... ومـن أنـا؟!... ألسـت زوجتـك وأم ابنك؟!...

ارتبك حافظ وصرخ غاضباً:

- وبعدين يا دلال!... احفظى ملافظـك... ضـرورى تعقلـى وتكبرى مخك... الزوجة الثانية لازم تقدر ظروف زوجها!...

قاطعته ثائرة:

- والرجل لازم يراعى امرأته الثانية!... ويعدل بين الاثنتين... اسمع لما أقولك!... أنا وهى زى بعضنا تمام... المعاملة لازم تكون بالمثل يا اخويا... وإلا عيشتك تبقى طين... أنا لن أسكت عن حقى.

اندفع حافظ خارجاً فى غضب وهو يلعن اليوم الذى عرفها فيه.

(٩٨)

خرج حافظ من عند دلال وهو فى غاية الضيق. شعر بغضـب وانقباض. لقد تحولت حياته إلى عذاب... كيـف سيسـتمر الحـال هكذا؟!... غيرة النسوان زى النار!... من يقدر على مواجهتهـا؟... وهذه ليست غيرة عابرة... هذه غيرة دائمة، أصبح مكتوباً عليه أن يعيشها. الأولى تغار من الثانية والثانية تغار من الأولـى... وهـو مراقب من الاثنتين... زى الفأر قدام القطة... الآن هو فـأر أمـام قطتين فى جحرين... كل واحدة تتمنى له الغلط ومستعدة لأن تطين عيشته... يادى المصيبة. وهو عليه أن يتحمل... أن يتحايل حتـى يستطيع أن يعيش... لابد من الكذب حتى تستقيم الأمـور... كـذب أبيض، وحتى كذب أسود ومهبـب!... ملعـون أبـو النسـوان... والرجالة كمان وعيونهم الزايغة... هام على وجهـه يائسـاً يـذرع الشوارع بلا وجهة. قادته قدماه إلى المقهى فـدخل. بـادره كمـال القهوجى بالترحيب الحار والتهنئة بالسلامة... قال لـه واللهِ كنـت

سأزورك بالمستشفى، لكنهم قالوا إنك غادرتها بالسلامة... لم أعرف بالحادثة إلا بعدها بأيام... واحد زبون يعرفك... كـان قاعـداً فـى القهوة ويحكى لزميله عن الحادثة... سمعت اسمك فسألته ملهوفاً... من تقصد؟!... حافظ بتاعنا!... عندما أكد لى كدت أجن... معقـول حافظ ابن الحلال يحصل له كـل دا!... عمومـاً، حمـد الله علـى سلامتك وفداء لك العربة والحمار... ولو أنى عارف مدى معزتـه عندك!... المهم أنك سليم وكل إللى يجيبه ربنا كويس. طلب حـافظ الشاى وجلس يتنهد حسرةً.

كل هذا يحدث فى هذه المدة البسيطة؟!... حياته انقلبـت رأسـاً على عقب... من استقرار وبيت هادئ وعائلة وأولاد، وبال خـالٍ، إلى انقلابات وبيتين واثنين نسوان، زيادة على ذلك غضب وخنـاق وقلة أدب، وهم لا ينتهى بالليل ولا بالنهار... ضاعت راحة البال...

أحضر له كمال الشاى وكوب ماء، وضعهما أمامه وهو يقول:

- واحد شاى كشرى على مزاجك... وعلـى حسـابى حـلاوة سلامتك.

شكره حافظ بامتنان واستطرد فى تفكيره وهو يرتشـف الشـاى بهدوء. كان ينتوى أن ينـزل إلـى السـبتية ليلقـى نظـرة علـى التريسكلات... لكن مزاجه غير رائق... وهل سـيظل علـى هـذه الحال إلى ما شاء الله؟!... لازم ينزل إلى الشغل... لم يعمل منذ مدة وعليه ديون كثيرة... كيف سيسددها إذا ظل مستسلماً هكذا؟!... لابد

أن يتحامل على نفسه بأية طريقة. سينزل إلى السـبتية الآن مهمـا كان. شرب الشاى ونهض مغادراً القهوة وهو يشكر كمـال علـى الشاى.

انطلق إلى السبتية وهو منقبض الصدر... اليوم فقط سيقر بموت صابر... تسللت الدموع من عينيه وانسالت على صفحة وجهـه... سيفعل أخيراً ما كان يقاوم فيه أبناء كاره، عندما كانوا يسخرون منه ومن تمسكه بصابر... كلهم يسرحون بالتريسكلات، وهو من القلائل الذين تمسكوا بالعربة والحمار... تمسك بقديمه... كان يقـول لهـم بثقة، من فات قديمه تاه... هـاهو مضـطر لأن يفـوت قديمـه... وحبيبه... رحمة الله عليك يا صابر... عاش معـه علـى الخيـر والشر... واساه وناجاه فى لحظات المحنة والضيق. عاش فى هدوء وعمل فى هدوء... لم يحتج لأكثر من لقمته... المحبة بينهما كانـت خالصة... والآن اضطره القدر لأن يلجأ إلى التريسكل... قد يكـون التريسكل مريحاً أكثر... وسريعاً... يساير الزمن اللاهث... لكـن أين ذلك من ونَسة صابر وجلسة العربـة معـه... يتهاديـان فـى الشوارع معاً، على إيقاع خطوات صابر... على مهل... هو يغنـى وصابر يضبط الإيقاع... وكانت الأمور أيضاً مرزوقة... كنا نعمل ونكسب ونحن نستمتع أيضاً بطعم الحياة وجمـال الغنـاء... لمـاذا السرعة الزائدة؟!... هل سيأكل الإنسان أكثر من معدته؟... صحيح، تكاليف المعيشة تزيد، وأحياناً لازم الواحد يشتغل أكثر مما اعتاد...

لكن ليس بهذا الشكل!... الناس أصبحت كالمسامير... صراع وخناق على لقمة العيش... كل واحد يريد أن يستحوذ على كل شيء... وعلى حساب أى حاجة... إنسانيته ومروءته... مزاجه وراحة باله... والناس حوله لا يفترقون فى الطباع... لم يعد أحد يحب الخير لغيره... كل واحد عاوز يأخذ لقمة غيره... وبالقوة إذا لزم الأمر... بقوة اللؤم والدهاء إذا كان متعلماً ومستنيراً... وبقرن الغزال إذا كان على باب الله وقليل الحيلة... ملعون أبو السرعة واللهوجة التى ستنسينا أنفسنا... صحيح أننا مضطر لمجاراة الحياة... لذلك سأشترى التريسكل وأسرح عليه... لكن لازم الواحد ينتبه... سأعمل على قد احتياجى واحتياج البيت... يادى الخيبة... أصبحوا بيتين الآن... لا تكفر برحمة ربنا... اسعى وربنا هو الرزاق... لكن إياك أن تنسى نفسك زى بقية الناس.

(٩٩)

اتفق حافظ على شراء تريسكل بالتقسيط. يدفع ثلاثمائة جنيه مقدماً والباقى أقساط شهرية، اتفق على دفع خمسين جنيها قسطا شهرياً، يدخرها من حصيلة بيع البضاعة بعد مصاريفه، مبلغ معقول يستطيع توفيره بدون كثير عناء.

عاد إلى العشة وأبلغ صفية. قال لها إنه سيبيع ما تبقى عنده من بضائع ويدفع المقدم، وإذا احتاج إلى مبلغ ليكمل به المقدم فسيطلب

من نديم. قالت له على الفور، يكفى ما تحمله نديم فى العلاج وفلوس المستشفى، أنا كنت شايلة على جنب مبلغاً، خذه وأكمل به المقـدم. دخلت إلى الدرج الذى تحتفظ فيه بحوائجها وعادت بِصرة، فتحتهـا ودفعت له بيدها ما فيها وهى تقول:

- هاك مائة وعشرة جنيهات... أكمل بها ولا تطلب من نديم.

وقف حافظ ملجوماً متصلباً فنهرته:

- مد يدك وخذ!...

مد يده المرتجفة ببطء وأخذ الفلوس منها وهو يتمـتم بصـوت مخنوق بغصة فى الحلق:

- ربنا يخليكى لى يا صفية.

استدارت واختفت من أمامه فى لمح البصر.

(١٠٠)

نزل حافظ إلى السوق وباع معظم ما عنده من البضاعة. قلبه لم يطاوعه على بيع ساعة الحائط فاحتفظ بها. قـال لنفسـه، الحكايـة ليست فلوساً وخلاص. الساعة غالية علـى، وأنـا وعـدتها إننـى سأصونها ولا أفرط فيها. لقد كانت تخاف من البهدلـة، ورضِـيت بالعيش معى... سأعتبرها عوضاً من الله عن صابر.

تجمع معه مبلغ المقدم وزاد. عزم على رد جزء من الفلوس التى أخذها من صفية، حتى تحتفظ بهم للطوارئ إلى أن يكملهـم لهـا. توجه إلى السبتية وأتم إجراءات شراء التريسكل. امتطاه مسـتغرباً وشرع فى تبديل البدال بساقيه متجهاً إلى ميدان المحطة ومنه إلـى مصر الجديدة. تبين أنه مضطر لمواصلة التبـديل برجليـه طـوال الطريق حتى يستمر التريسكل فى السير... تـرحم علـى صـابر الأمير، الذى كان يتحمل بمفرده عناء السير، بينما يجلس حافظ فوق العربة متَعنْطِزاً يغنى... وهل سـينعم بالغنـاء مـرة أخـرى؟!... وعايزنا نرجع زى زمان!... قول للزمان ارجع يا زمـان... هـل سيغنى سالمة يا سلامة؟... وأين هى السلامة؟!... يارب قـوينى... عاد إلى العشة وهو لا يشعر بالفرحة لشراء التريسكل... كم كـان المشوار ماسخاً!...

(١٠١)

تكررت اصطدمات دلال به وزادت اشتعالاً مع تـوالى الأيـام. دلال تطالب بحقها الشرعى. العدل. ليلـة لهـا وليلـة للمحروقـة الثانية... أم تريدنى أن أمشى على حلّ شَعرى؟!... لكن كان يعـز عليه أن تطلق على صفية ذلك اللفظ!... يشعر بالعجز عن شـكمها وتأديبها... لأنه مخطئ... وليس عادلاً... الحق عليه مـن ساسِـه

لرأسه... لا يستطيع أن يعدل بينهما!... لأنه لا يستطيع أن يواجـه صفية... صحيح هى تعلم أنه تـزوج... وعلمـت أيضـاً أن دلال خَلفت... وهل يختبئ شىء؟!... الكلام داير وانعرف... لكـن هـل يستطيع أن يواجه صفية ويقول لها بالفم المليان... ليلة لـكِ وليلـة لدلال!... لماذا لا يستطيع مواجهتها؟... هل لأنه تعب فى صـلحها وعودتها للبيت؟... الحكاية احتاجت حادثـة مـوت... وراح فيهـا صابر المسكين... أم لأنه يشترى صفية أكثر من دلال؟... يبدو أن ذلك ليس ببعيدٍ عن الحقيقة... صفية هى الأصل... حبـه الأول... عاشا مع بعضهما على الخير والشر... بينهما عِشـرة... وأولاد... وآمال... وأحلام مشتركة أيضـاً... لكـن دلال!... كانـت لحظـة طيش... نزوة... رغم أن رغبته فيها لم تهدأ!... ترى، لماذا لم يحلم مع دلال أيضاً؟... وهل الحلم ضرورى للحياة إلى هذه الدرجـة؟... يعنى، لكى تكون لحياة الرجل مع الست معنى وقيمة، هل من اللازم أن يحلم معها، وتحلم معه؟... أن يحلما معاً أحلامـاً مشـتركة؟... وهل المسألة صعبة؟... لماذا لا يحاول أن يحلم مع دلال لكى يرتبط بالحياة معها أيضاً؟... وهل يحلم الواحد برغبته؟!... طيب وما ذنب رزق؟... ألا يجب أن يحاول لأجل خـاطره؟... المصـيبة أنـه لا يقدر!... الصح معروف والغلط معـروف... ومـع ذلـك يخطـئ الإنسان، ويتمادى فى الخطأ... لا يقدر على عمل الصح... من أين

يأتى بالقوة لكى يكون مع الصواب ويبتعد عن الخطأ... كل النـاس تخطئ... حتى العاقل والحكيم... رحم الله امرأ!...

(١٠٢)

مرت الأيام على هذه الحال. حافظ يكدح على أكل عيشه ليسـدد ديونه لنديم ويدبر مصاريف البيتين. يزور دلال فى وسـط النهـار خلسة، أثناء سعيه على الروبابيكيا. أحياناً تمر الزيارة على خيـر، وكثيراً ما تنقلب إلى خناقة لرب السماء على إهمـال حـافظ لهـا لحساب المحروقة الثانية. بدأ حافظ يفقد الرغبة فى دلال ويزهـدها مع كثرة اصطدامهما، والذى ازداد ضراوة مع مرور الأيام. بـدأت صفية فى العودة إلى سابق عهدها فى تجارة الخضار. رحـب عـم مرزوق الخضرى بها وساعدها بالبضاعة كعادته لتـدور تجارتهـا مرة أخرى. تأخذ يوسف وخيرية على عربتها الصغيرة فى الصباح وتذهب إلى عم مرزوق. تحمل الخضار وتسعى على رزقها بالعربة فى أطراف مصر الجديدة القريبة لمطرحها. تُشَطب الخضار وتعود بما يكفى لطبيخ البيت والأولاد. تحاب سعدية فى الصباح وتضع لها البرسيم ثم تطعم ضلمة وزبادى. بعد عودتها تطهو الطبيخ وتطعـم الأولاد ثم تنتحى جانباً لتراعى شئون البيت. تغسل وتنشر الغسـيل

وترفو الملابس. بعد المغرب، تدخل لتنام هى والأولاد بعد أن تترك الأكل لحافظ على الطبلية.

(١٠٣)

وقفت سيارة الحى أمام عشة حافظ وهو يستعد لمغادرتـه فـى الصباح. نزل منها شخص له شـوارب كثيفـة ويرتـدى قميصـاً وبنطلوناً ونظارة شمس. سأله بغلظة:

- هل أنت صاحب العِشة؟.

- نعم، خير إن شاء الله؟!.

- سيجىء بولدوزر البلدية لإزالة العِشة غداً.

- لماذا؟!... هذه عِشة فى الخلاء تؤوينى أنا وعيالى!...

- هذه هى الأوامر... الأرض سيبنى عليها فنـدق اسـتثمارى ومركز تجارى، لابد من إخلائها وأنت هنا بدون سند قانونى.

- أنا فى الخلاء يا عالم!...

- الحكومة أعطـت الأرض لمسـتثمر أجنبـى ليبنـى عليهـا المشروع.

خبط حافظ كفاً بكف وتساءل:

- وأين أذهب أنا والعيال يا عالم؟!...

خرجت صفية ويوسف على أصوات الضـجة. وقفـت تراقـب الموقف بقلق.

قال حافظ لموظف البلدية متوسلاً:

- أعطونى مهلة لأبحث عن مطرح آخر يؤوينى أنا والعيال.

- هذه تعليمات لابد أن تنفذ.

اقترب سائق سيارة البلدية من حافظ وقال له هامساً:

- تفاهم مع الباشمهندس. قد يستطيع أن يستسمح الإدارة لتعطيك مهلة حتى ترتب نفسك.

تحير حافظ فيما يفعل. سأله مرتبكا بصوت خفيض:

- وكيف أتفاهم معه؟!...

- تكلم معه ولا تكن لخمة هكذا؟

توجه حافظ إلى المهندس وقال له راجياً:

- أنا فى عرضك يا باشمهندس، أعطنى مهلة لأجد مطرحاً آخر.

نظر إليه المهندس متفحصاً ثم قال:

- باين عليك أنك رجل طيب... اسمع، سأتكلم مع الإدارة لكـى يعطوك مهلة أسبوع...

صمت وهو يرمقه بنظراته ثم أردف:

- لكن لابد من ترضية لهم.

اعترض حافظ وقد تبدت نبرات اليأس فى صوته:

- أسبوع واحد لا يكفى يا باشمهندس. وهل من السـهل إيجـاد سكن فى أسبوع؟!.

نظر إليه المهندس نظرات لم يفهمها ثم قال له كالمتفضل:

- خلاص... نعطيك أسبوعين وأمرنا إلـى الله، سـيعود إليـك السائق بعد ساعة لتتفاهم معه.

استدار وركب السيارة التى انطلقت على الفور مبتعـدة. جلـس حافظ أمام العشة وقد اسودت الدنيا فى عينيه... أهى ناقصة إزالـة العِشة!... كل هذا الغضب يا ربـى!... لقـد أخطـأت وتحملـت غلطتى... وها أنا شارب المر وساكت... لماذا كل هذا؟... أستغفر الله العظيم... الواحد سيكفر... ألم يجدوا غير هذه الصحراء لكـى يبيعوها... العيشة صعبة وأصبحت مراراً وهم لا يفكرون فى الناس الفقراء... يعنى إيه مستثمر؟!... إحنا عاوزين نأكل ونحطّ رأسنا... كثيرة دى على الفقير!...

وقفت صفية إلى جوارة حائرة وقد بدا الغم على ملامحها.

قالت له مواسية:

- سنعمل كوبين من الشاى ونقعد لنفكر. لا فائدة من لطم الخدود الآن، لابد أن نفكر فى الحل.

- أولاد الكلب دول يعيشون فى برج عالٍ وتنحرق الناس!... ألا يعرفون أن الناس تكمل يومها بالعافية. ما بين اللقمة وسداد الـديون، كل واحد داير فى ساقيته زى الطـور... وهـم يتمخطـرون فـى

العربات اللوكس ويتشدقون بكلام يفقع المرارة فـى التليفزيـون... كيف ينامون الليل والناس لا تجـد اللقمـة ولا المطـرح؟... وإذا مرضت تروح تموت أحسن!... بلد إيه دى!... الحكام لا يشـعرون بالناس إلا بالكلام المرتب والوعود الكاذبة. لا يهمهم إلا الكراسـى، يركبون عليها كأنهم ملزوقون بغراء، حتى يفتكرهم ربنا... وربنا لا يفتكرهم إلا بعد أن تطلع روحنا... أستغفر الله العظيم... حسبى الله ونعم الوكيل!...

غابت صفية قليلاً بالداخل ثم عادت بالشـاى. جلسـا يرتشـفان الشاى واجمين ويقلبان فى الأمر.

قالت صفية بعد قليل:

- ليس أمامنا إلا أن نوصى كل من نعرف على مطـرح آخـر بسرعة.

- وهل السكن سهل يا صفية؟!.

- أى مكان يؤوينا... غرفة فوق السطح أو حتة بعيدة مهجورة.

- واللهِ أنا مخى انشلّ!...

انبرت صفية قائلة فى حماسة بعد قليل:

- سوف أذهب اليوم إلى عم مرزوق الخضرى لأشـاوره فـى الأمر. عم مرزوق عنده زبائن كثيرة ومحبوب. الكل يحب يخدمـه بعينيه. سوف يساعدنا على قد ما يقدر...

جاءت عربة البلدية بعد أكثر من ساعة بوقت طويل جعل حافظ يخشى أن يكونوا قد نسوه. كان السائق بمفرده. نهض حافظ للقائـه وهو يدعو الله أن يجنبه شر المزيد من المفاجآت.

قال له السائق:

- الجماعة يطلبون مائتى جنيه، وسوف يعطونك مهلة أسبوعين.

تمتم حافظ:

- مائتا جنيه!... من أين سأتدبرهم الآن؟!...

أردف الرجل:

- الباشمهندس راعى حالتك وتكلم مع المسئولين. المبلغ لا يروح لشخص واحد.

تساءل حافظ برجاء:

- ألا يمكن هز المبلغ قليلاً... يا جماعة نحن سنتشرد... راعوا أننا عائلة ومعنا أطفال... وأنا بتاع روبابيكيا.

- هذا آخر كلام!... وإلا سيجىء البلدوزر غداً ويزيل العشة.

صاح حافظ غاضباً:

- وترمونا فى الشارع!

- وهل أنت ساكن فى قصر ياخَى؟!...

- ألا يكفى هذا!... رضينا بالهم!...

- هل ستدفع أم لا؟.

- طَيب أعطنى مهلة لتدبير المبلغ.

- عندك حتى صباح الغد. سأمر عليك الساعة التاسعة. إن لـم تجهز المبلغ فسيجىء البلدوزر قبل الظهر.

قال هذا متوعداً وهو يستدير متجهاً للسيارة.

(١٠٤)

قالت صفية لحافظ:

- يجب أن نتحرك بسرعة. خذ المبلغ الذى أكملته لـى. مائـة وعشرة جنيهات مازالت معى ونكمل عليها بسلفة من نديم، أو مـن عم مرزوق. المهم أن نسعى سريعاً لإيجاد مطرح آخر.

خرجا سريعاً كل إلى وجهته، حافظ إلى نديم ومن يعـرف مـن أهل الحتة وصفية إلى عم مرزوق الخُضرى. حكى حـافظ لنـديم المصيبة التى حلت به. قال له على الفور، لا تنعى الهـم. الخطـوة الأولى ندبر المبلغ الذى طلبوه حتى يعطوك المهلة وبعـدها يحلهـا ربنا من عنده. سوف نوصى كل المعارف علـى مطـرح مناسـب لك... لكن يا خسارة!... ستبعد عنى. أجابه حافظ بحرارة:

- لن يبعدنى عنك إلا الموت ياسى نديم.

ضحك نديم ليسرى عنه:

- أقصد المكان يا مغفل!... تعودتك قريباً منى.

- المسافات لا تبعد الأحباب مهما بعدت.

- عندك حق يا حافظ... المهم، مر على بعد الظهر أكـون قـد دبرت لك باقى المبلغ.

غادر حافظ نديم لينطلق فى رحلة البحث عـن مكـان ليـؤيهم. استدعى فى ذاكرته كل من يعرفه ويمكن أن يساعده فى حل مشكلته وعزم أمره على المرور عليهم جميعاً.

عم مرزوق قال لصفية:

- لا يهمك حاجة أبداً يا صفية. رقبتى سدادة.

دس يده فى جيبه وأخرج منه رزمة فلوس. سألها:

- كم تريدين؟.

أطرقت خجلاً وقالت له بعد أن فكرت فى إكمال باقى المبلغ من نديم، حتى لا تثقل عليه:

- خمسون جنيهاً تكفى.

أعطاها المبلغ وهو يؤكد لها:

- إذا أردتِ أى شىء آخر فلا تترددى... اعتبرينى زى أبيكِ.

- ربنا يخليك يا عم مرزوق ويعطيك على قّد ضميرك.

أردف عم مرزوق قائلاً:

- وبالنسبة للمطرح، إن شاء الله ربنا سيحلها. وأضعف الإيمان، أنا عندى غرفتان فوق سطوح البيت الذى أسكنه فى روض الفرج، قريباً من سوق الخضار.

- ربنا يزيدك يا عم مرزوق ولا يحرمنى منك.

قال لها:

- هذا آخر حل، يعنى إذا انسدت الدنيا فـى وجوهنـا، لكنـى سأوصى لكِ على مطرح قريب من هنا، وربنا يعمل ما فيه الخير.

(١٠٥)

جاء سائق الحى فى اليوم التالى وتسلم المبلغ من حافظ.

قال له باهتمام:

- إياك أن تسمع لأى أحد آخر يجيئك ويطلب منك فلوساً. اطرده على طول. قُل له، الباشمهندس جاءنى بنفسه وأعطانى مهلة. أنـت فاهم!...

لعب الفأر فى عِب حافظ وسأله بانزعاج:

- وهل يمكن أن يجيئنى أحد آخر؟!.

- لا طبعاً، لكنى ألفت نظـرك، أولاد الحـرام كثيـرون، وأى موظف بالبلدية يعلم بالموضوع، قد تسـول لـه نفسـه أن يجـىء ويبتزك... من يعرف؟!... لم يعد بالدنيا خير.

هز حافظ رأسه متعجباً وهو يقول:

- ربنا يكفينا شر أولاد الحرام!...

أردف متأسياً بعد أن انطلق السائق بالسيارة:

- آه يا بلد!... صحيح، حاميها حراميها.

(١٠٦)

طبعاً لا أسبوعان، ولا سنتان، يكفيان لإيجـاد مطـرح يـؤوى الإنسان فى بلدنا... إلا إذا كنت تستطيع أن تتكفل بثمن شقة تمليـك أو إيجار جديد، بمئات أو آلاف الجنيهات. طيب، أين يسكن مـن لا يملك؟!... هل فكر أحد فى هذا الموضوع البسـيط العـادى؟... إن الإنسان لابد أن يسكن... وأن يأكل... ويعالج إذا مرض... ولنـاس التعليم والراحة، والبهجة!... ما علينا، لم يوفق حافظ وصـفية فـى إيجاد مسكن. ذهبت صفية إلى عم مرزوق فقال لهـا... المطـرح موجود يا ابنتى... روض الفرج حلوة... وناسها حلوة... هـذا مـا يحدث دائماً فى بلدنا، فهى تعيش بناسها، وبالقصور الذاتى.

عم مرزوق الخضرى يملك محـل خضـار بـروض الفـرج، بعمارته التى ستستقبل صفية وحافظ والعائلة. كان هذا المحـل هـو مقره الأساسى والوحيد عندما كان سوق الخضار بـروض الفـرج. ربنا وسع عليه وأخذ محلاً آخر فى مدينة نصـر عنـدما انفجـرت بالعمار والعمائر وامتلأت بالعائدين من الـبلاد العربيـة بفلوسـهم وعاداتهم الجديدة. عندما انتقل سوق الخضار إلـى مدينـة العبـور بطريق الإسماعيلية، فكر عم مرزوق فى أخذ محل بمصر الجديدة، قريباً من السوق الجديد، وليكون هو مقره الرئيسى، يرتب منه إمداد محلاته بالخضار يوميا. وقد كان.

أخذ عم مرزوق حافظ وصفية فى سيارته البيجو القديمة وذهبوا إلى روض الفرج ليريهم المكان. غرفتان فوق سطح البيت، والسطح كله فاضٍ. قال لهما بأريحية، السطح تحت أمركم تبرطعون فيه أنتم والأولاد، وسوف أرسل إسماعيل السباك غداً لعمـل عفْشِـة ميـاه صغيرة لكم، الحكاية بسيطة، لا تنعوا الهم. سيمد ماسـورة الميـاه وماسورة الصرف من المنور ويقوم بعمل اللازم، وأنا المتكفل بكل شىء.

أطرقت صفية وقالت بخجل:

- هذا كثير يا عم مرزوق!...

- عيب يا صفية... النـاس لبعضـها، وضـرورى أن نسـع بعضنا... والحمد لله مستورة.

قال حافظ بحماسة:

- ربنا يقدرنا على رد جمايلك يا عم مرزوق.

سألته صفية بتردد:

- وكم الإيجار يا عم مرزوق؟

- اسكنوا الأول ونتكلم بعدها... لن نختلف يا صفية!...

أجابته بود:

- ومتى اختلفنا يا عم مرزوق!

عادا معه إلى مصر الجديدة وهما مطمئنان ويشعران بأن الـدنيا بخير صحيح.

(١٠٧)

أحضر حافظ سيارة نصف نقل وحمل عليها أشياءهم البسـيطة، وضع أيضاً سعدية عليها وركب إلى جانب السائق. نقل الحاجـات إلى روض الفرج وحملها إلى مطرحهم الجديد فوق السطح. عاد إلى مصر الجديدة وحمل ما تبقى على التريسكل. أخـذ أيضـاً ضـلمة وزبادى ويوسف وركبت صفية ومعها خيرية الميكروباص إلى باب الحديد ومنه إلى روض الفرج.

بهذا انتقلت عائلة حافظ وصفية من أطراف مصر الجديدة، حيث عاشوا منذ زواجهم راضين بقسمتهم، إلى روض الفـرج، المكـان الوحيد الذى وجدوه بفضل عم مرزوق الخضرى، بعد تلـك الأيـام العصيبة التى واجهوا فيها التهديد بالتشريد والطرد... تمـتم حـافظ حزيناً وهو يهم بالتحرك بالتريسكل ويلقى نظرة أخيرة إلى العشـة، يتذكر ذكرياته وأيامه بها... والمرحوم صابر... تمتم وهو يغالـب دموعه... لم يعد لنا مكان بمصر الجديدة.

(١٠٨)

استقرت العائلة فى مسكنها الجديد. كان السكن غريباً عليهم، فبعد البراح الفسيح والعِشة المستقرة، يعيشون الآن فوق سطح عالٍ عـن

الأرض. كانت صفية تخاف من الاقتراب من السور فـى البدايـة والنظر إلى الشارع. عيناها فى وسط رأسها أن يقترب يوسف مـن السور ويشب عليه فيقع وتنقطم رقبته. ترقع بالصوت عندما تقفـز ضلمة فوق السور وتقبع ببرود لتتشمس.

حافظ أيضاً لم يكن مستريحاً للعمل فى روض الفرج وشبرا، كان يلف طوال النهار بالتريسكل ثم يعود لصفية قائلاً باستغراب:

- الناس هنا فى روض الفرج وشبرا أحوالهم عجب... أحيانـاً أتصور أنه ليس عندهم روبابيكيا!... لا يفرطون فى أشيائهم القديمة إلا بالعافية.

ترد عليه صفية قائلة:

- القديم عزيز على القلب... الناس تحتفظ به ولا تفرط فيـه إلا للضرورة... ألم تحتفظ أنت بساعة الحائط... هل نسيت؟!...

- لكن ألا يجددون عفش بيوتهم؟!.

- الأحوال هنا تختلف عن الأحوال فى مصر الجديـدة. النـاس فلوسها على قدها، تحافظ على حاجتها القديمة وتستعملها. الفلـوس يحتاجونها للمعيشة. تجديد العفش تكاليف لا يقدرون عليها... وبينى وبينك لا لزوم له دائماً... هناك أشياء أكثر أهمية.

- طيب والعمل... أنا أِلفّ وأدور طوال النهـار ولا أعـود إلا بالقليل.

- خلاص... معاك التريسكل... تقدر تسرح فى مصر الجديـدة أو مدينة نصر.

- يعنى أشتغل فى مصر الجديدة وأعيش فى روض الفرج!

- أحسن حاجة... اشتغل مطرح ما تلقى الرزق وعِش مطرح ما تلقى الأمان والونَسة.

هز حافظ رأسه قائلاً:

- صحيح... العيشة هنا ونَسة... والعشرة حلوة...

(١٠٩)

كان حافظ يزور دلال بمصر الجديدة كلما سنحت له الظـروف. يعود من الزيارة حزينا مكروبا. دلال تهمل رزق وكثيراً ما وجـده معتلاً. لا تهتم بنظافته مثلما تفعل صفية مع يوسف وخيريـة. لـم يستطع أن يتغاضى عن المقارنة بينهما... لكنه يعود ويقول لنفسه... أنت نفسك تهتم بصفية وأولادها أكثر من اهتمامك بدلال وابنهـا... أليس هذا إهمالاً أيضا؟... لا يجد لمعضلته حلاً فيغادر وهو مهموم ومنقبض الصدر.

أصبح يكثر من زياراته لدلال عندما بدأ يسرح فى مصر الجديدة مرة أخرى، بعد أن ضاق به الحال. حاول أن يعوض إهمالـه لهـا وانشغاله فى فترة القلق والانتقال من مصـر الجديـدة إلـى روض

الفرج، لكن ذلك لم ينجح فى تحسين الأحوال بينهما. كثيراً ما كـان يجدها قد تركت رزق لأبيها، أو لزوجة بواب العمـارة المجـاورة. يسأل عنها فيقولون له إنها ذهبت لقضاء بعض شئونها، شـراء مـا يلزمها أو زيارة إحدى صاحباتها. يصطدم معها كثيراً لتركها الولـد فتقول له، وهل تريدنى خادمة لابنك وأنت عايش على مزاجك مـع مراتك الأولى وأولادك منها؟!... أنا اتخنقت!... يضطر للسـكوت مغلوباً على أمره ويتركها غاضباً وهو يحمل هم الدنيا فوق رأسه.

فى آخر اصطدام بينهما قالت له:

- اعمل حسابك... سوف أسرح باليانصيب مثلما كنت...

سألها منزعجاً:

- والولد؟!...

- اتفقت مع جارتى امرأة البواب أن أتركه معهـا، وسـأعطيها مبلغاً يومياً حسب التساهيل.

- وهل ينقصك حاجة لتخرجـى للشـغل؟!... ألا أتـرك لـك مصاريفك أنت والولد؟.

ردت عليه وهى ترمقه بنظرة مستَفِزة:

- زهقت من القعدة... وكمان فلوسك لا تكفينى.

خرج من عندها هائماً على وجهه واليأس يملؤه... ما العمل فى هذه المصيبة؟... فرس جامح ولا يستطيع أن يشكمها... والولد رزق المسكين!... ما ذنبه فى هذه البهدلة؟... يارب... يكفى ما حدث لى حتى الآن... لقد تعبت... حتى متى سأظل أكفر عـن ذنبـى؟!...

طيب، إذا كنت أنا أستاهل كل ما يجرى لى... لكن، ما ذنب الولـد المسكين فى هذه البهدلة؟...

(١١٠)

ونَفذَت دلال ما انتوته فعلاً. عادت لتسرح بورق اليانصيب بعـد أن اتفقت مع جارتها على ترك رزق معها أثناء النهار. جارتها ربنا لم يرزقها بالعيال وفرحت بالولد، بالإضافة إلى المكسب طبعاً. دلال لم تتفق معها على مبلغ معين. تركت الموضوع عائماً. لم تشـأ أن تقيد نفسها بمبلغ تلتزم به. قالت لها سأعطيكِ ما يقدرنى عليه ربنـا. الست عارفة إن دلال تحتاجها وستدفع لها بالمعقول، هذا بالإضـافة إلى سعادتها بالولد.

اضطر حافظ إلى قبول الأمر الواقع، وماذا فى يده ليفعلـه؟!... دلال قوية وقادرة، تفعل ما تريد. عزم أمره على المـرور بانتظـام عليهم للاطمئنان على حسن رعاية الجارة لرزق. تباعـدت مـرات لقائه بدلال نظرا لتواجدها معظم الوقت خارج البيت.

كانت صفية تذهب إلى مصر الجديدة مـن آن لآخـر لتسـتطلع الأخبار من بعيد لبعيد. صفية طيبة حقا، وبنت حلال، لكنها أريبـة. لا أحد عبيطاً، خاصة الست إذا تهددت مملكتها، وأى تهديد أخطـر من ضرة صغيرة ولعبية... وأيضاً حلوة... رغم أن صفية لا تريـد أن تعترف بذلك تماماً... تقـول لنفسـها... هـى سـت زى كـل

الستات!... أخبار دلال والعيل كانت عنـدها أولاً بـأول... ثـورة دلال... استعانتها بجارتها لرعاية الولـد، ثـم خروجهـا لتسـرح باليانصيب مرة أخرى.

(١١١)

مرت الأيام على هذا المنوال. دلال تسرح كل يوم باليانصـيب منذ الصباح ولا تعود قبل المغـرب. تتـرك رزق عنـد جارتهـا لرعايته. ساءت صحة عم عابد الغفير والد دلال فى الأيام الأخيرة، مما دعا الحاج زين المقاول إلى تعيين خفير آخر معه ليساعده. لـم يشأ أن يستغنى عنه بعدما تعبت صحته. قال لـه، أنـت المسـئول أمامى، ذلك ليطيّب خاطره ويمحو أثر تعيين خفيـر عِفـى جديـد. أصبح عم عابد يقضى معظم الوقت فى عِشّته راقداً.

كان حافظ يسرح على رزقه فى مصر الجديدة ومدينـة نصـر، وكلما تجمعت لديه البضاعة، يذهب إلى سوق باب الفتوح لبيعهـا. مصاريفه زادت والحمل عليه كبير. الزواج لـيس لعبـة أو متعـة خالصة. يذهب لزيارة رزق وعم عابد مرتين أو ثلاثاً فى الأسـبوع ويترك لعم عابد مصاريف رزق ودلال. لـم يعـد يـرى دلال إلا لماماً... تباعدت مرات معاشرته لها وصارت واجباً يؤديه خشية أن

تلعب بذيلها. بدأت دلال تحرن عليه فى الأيام الأخيرة وهى تقول له بقرف... رح يالخويا للمحروقة بتاعتك... اشبع بها.

(١١٢)

- هل عرفت حاجة عن دلال؟.

- مالها دلال؟!...

- ألا تعرف أنها متغيبة منذ يومين. خرجت لتسرح باليانصـيب أمس الأول ولم ترجع.

- كيف عرفت؟.

- جاءنى عامل من العمارة أرسله أبوها ليسألنى عنها.

- والولد؟!...

- موجود مع جده... أنا كنت فاكر إنك عارف.

فاجأ نديم حافظ عندما مر عليه فى الصباح، قبل أن يبدأ جولتـه المعتادة. وقف مذهولاً يضرب أخماساً فى أسداس، وقد فقد القـدرة على التصرف.

سأل نديم بذهول:

- أتكون قد أصيبت فى حادث؟... أم!... سـأذهب لأرى مـاذا جرى فى هذه المصيبة.

ترك حافظ نديم بالكشك وانطلق إلى النزهة الجديـدة ليسـتطلع الأمر.

كان حافظ متغيباً عن مصر الجديدة منذ بضعة أيام لوعكة صحية ألمت به. أكل طبق كشرى من الرجل الواقف بعربته أمـام محطـة باب الحديد، أصابه بعدها قىء وإسهال أقعداه فى الفراش يومين.

دخل حافظ على عم عابد فى عِشته فوجده جالساً يولول كالنسوان وهو يضع رزق فى حِجره. قال له بمجرد رؤيته:

- أين أنت يا حافظ؟!... الحقنى الله لا يسيئك... دلال راحت ولا أدرى ما جرى لها... دلال راحت منى يا حافظ!.

حاول حافظ رغم ارتباكه تهدئة الرجل المحطم أمامه. قال له:

- اهدأ يا عم عابد... سوف نبحث عنها فى كل مكان.

- أين نبحث عنها يا حافظ؟!... لقد سألنا كل من يعرفها...

- قد تكون قد حدثت لها حادثة بسيطة... سـوف أذهـب الآن للسؤال عنها فى المستشفيات.

- يا رب... والنبى حبيبك تجيب العواقب سليمة.

انطلق حافظ بالتريسكل وقد غامت الدنيا فـى وجهـه... أيـن يذهب؟... ومن يسأل؟... هداه تفكيره إلى الذهاب أولاً إلـى القسـم للسؤال عن أى بلاغ بحوادث. مر بعدها على المستشـفيات التـى يعرفها، مستشفى هليوبوليس أولاً، ثم مستشفى الدمرداش وغيرهـا من المستشفيات الصغيرة التى يعرفها، أو التى كـان يمـر عليهـا

مصادفة. دخل عليه الليل دون أن يتوصل إلى شىء. عـاد يائسـاً محبطاً إلى النزهة الجديدة، على أمل أن يجد هناك أخباراً عنها.

(١١٣)

دلال هربت مع عفيفى الكهربائى!...

انتشرت الشائعة بين عمال العمارة أولاً، ثم بين أهل الحتة جميعاً فيما تلا من أيام... كيف هربت؟... لماذا؟... لم يـدّل أحـد ريـق ذويها.

لكن التفاصيل الصغيرة، بدأت تتسرب وتتضح من خلال زملائه العمال القريبين منه. كان ارتباط انقطاع عفيفى عن العمـل بتغيـب دلال المفاجئ، مثار شكوك زملائه فى العمل، فقد كـانوا يعرفـون علاقة عفيفى بدلال منذ مدة، ومنذ ما قبل زواجهـا المفـاجئ مـن حافظ. يتسترون على الخبر، فعفيفى زميلهم وصاحبهم. عينـه مـن البنت، والبنت لِعبية. كثيراً ما كان يختلى بها فى جراج العمارة، أو فى أحد الأدوار الخالية من العمال، وقد لاحظ ذلـك أولاد الحتـة، ضبطوهما وزفوهما تجريساً فى إحدى المرات. تزوجت بعدها فجأة وظهرت بطنها ثم خَلَفَت فتأكدت الأقاويل.

استمرت علاقة عفيفى بها بعد الزواج، وزادت مع كثرة غيـاب زوجها عنها وإقامته مع زوجته الأولى. لاحظوا فى الأيام الأخيـرة

زيادة تعلقه بها وانشغاله الدائم بأمورها. كان يبدو مهموماً فى معظم الأوقات. زادت أيام تغيبه عن العمل وتزامن ذلك مـع نـزول دلال لتسرح باليانصيب مرة أخرى. رآهما أحد العمال معاً ذات مرة فـى ميدان روكسى فعاد وأبلغ زملاءه على الفور.

تأكد لزملائه شكوك هروبهما معاً عندما ذهبوا للسؤال عنه فـى مسكنه فعرفوا من الجيران أنه غادر المسكن. قالوا لهم إنـه تـرك المسكن وسافر إلى بلاد عربى.

(١١٤)

ضربة قاسية من ضربات القدر تزلزل لها حافظ... كـل هـذا يحدث فى تلك الفتـرة القصـيرة؟!... حمـل وزواج اضـطرارى وخَلَف... غضب صفية وبيت يكاد يتقوض... موت صـابر... ثـم هدم وإزالة العِشة، واضطراره للعِزال إلى روض الفـرج... أكـان ينقصه، زيادة على ذلك، هذه الفضيحة؟!... تهرب مع رجل آخـر وهى على ذِمتى!... ما هذا الفجور؟!...

قال له نديم:

- أنت لا تخلو من المسئولية.

أطرق حافظ حزيناً مهموماً. أردف نديم:

- لقد تركتها وحيدة وهى صغيرة وفايرة. لم تعدل بينها وبـين صفية.

قال له مقهوراً:

- ألم تَر كيف كان بيتى سينخرب؟!... غضبت صفية وتركـت البيت، ولم تعد إلا بمصيبة الحادثة التى كادت تقصف عمرى وأودت بالمرحوم صابر.

- ليس هذا ذنب دلال. هى ست زى كل الستات. تحتاج لرجـل يقف إلى جانبها، يعطيها الأمان ويحميها.

- لكنى متزوج من قبلها... وعندى عائلة وأولاد.

- كان يجب أن تعدل بينهما... أو تحاول على الأقل.

- لقد تزوجتها وسترتها.

- أصلحت غلطتك... لا تعتبر أنك تفضلت عليها.

- لكن... أتهرب مع رجل آخر وهى متزوجة؟!.

- وما الفرق بينك وبينها؟!... ألم تدخل فى علاقة معها وأنـت متزوج أيضاً؟...

أسقط فى يده فصمت. لم يستطع مواصلة المجادلة.

تساءل بعد قليل:

- وما العمل؟!.

- طَلقها غيابياً واتركها لتعيش حياتها مع من يريدها.

- والولد؟!...

- عليك أن تتحمل مسئوليتك حتى النهاية.

كانت أياماً سوداء على حافظ. قست عليه الأقدار وزادت همومه. هم رزق، الطفل الوليد، وهم عم عابد، الشيخ المسن الذى ساءت حالته الصحية كثيراً بعد واقعة هروب دلال. عليه الآن مسئولية رعايتهما وحده. أقصى ما استطاع أن يرتبه لهما، هو توصية الست سنية جارتهم، بمواصلة التكفل برعاية رزق، عوضاً عن أمه الآن، لحين أن يحلها ربنا برحمته، رجاها أيضاً أن تشمل عم عابد المريض بعنايتها على قدر الاستطاعة وأجزل لها العطاء.

أصبح ملتزماً بأن يمر عليهما يومياً، وأحياناً أكثر من مرة فى اليوم الواحد. فى الصباح قبل أن يسرح على رزقه، وفى المغرب قبل أن يعود إلى روض الفرج. قلبه لم يطاوعه على الاعتماد تماماً على رعاية الست سنية. صار لزاماً عليه أن يسرح فقط فى مصر الجديدة، حتى يكون قريباً من الطفل والشيخ، خاصة عم عابد المسكين، الذى كانت حالته تسوء باطراد. كان حافظ يدعو له بالسلامة وطول العمر، فهو الوحيد من دم رزق، الذى تبقى إلى جواره، بعدما صار يواجه ذلك الخضم من الأحداث بمفرده وهو فى هذه السن الغضة. يعلم الله كيف تصير الأمور لهذا الطفل البائس، إذا حدث مكروه لعم عابد وافتكره ربنا... هل سيتركه مع الست سنية بعد أن هربت أمه وفارق جده الحياة، لا قدر الله، وحيداً بلا

سنِدٍ، كاللقيط، ليس له أحد إلا أبوه البعيد عنه والمنغمس فـى حيـاة أسرته.

هزل حافظ وركبه الهم. لاحظت صفية ذلك... تابعت الأخبـار بوسائلها المعتادة وعرفت كل ما كان... تَشَفت فى البدايـة كـامرأة وزوجة تهددت مملكتها، لكنها سرعان ما انتبهت بفطرتهـا السـوية إلى حقيقة المأساة، خاصة بعد اختفاء غريمتها وتواريها فى غياهب النسيان.

(١١٦)

- عم عابد، تعيش أنت يا حافظ.

- يا نهار أسود!... متى؟... وكيف؟...

- أمس قبل صلاة الظهر... بعد أن تركته بقليـل طلـوع السـر الإلهى. الحاج زين الله يكرمه تكفل بإكرامه ودفنه.

كان حافظ قد مر على عم عابد ورزق بالأمس ثم سرح على أكل عيشه. أكرمه ربنا ببضاعة لا بأس بها فانطلق ليبيعها فى سوق باب الفتوح لاحتياجه للفلوس. لم يستطع المرور عليهما فـى المغـرب كعادته لتأخره فى السوق وعاد إلى روض الفرج.

خبر أسود نزل عليه فزلزله. أبلغته الست سنية عندما ذهب فـى زيارته المعتادة لهما. كانت تحمل رزق على كتفها وتبكى بتأثر بـادٍ بوضوح على ملامح وجهها.

ما العمل الآن؟!... خلاص... رزق المسكين لم يعد له أحد مـن دمه يرعاه!... أتركه لمن؟!...

- يمكن أن تترك رزق معى فى الحفظ والصون... رزق فـى عينى... ربنا عالم إنى أحبه كضنايا...

سمع صوت الست سنية يتردد فى أذنيه وهـو كالمغيـب عمـا حوله... تمتم وهو سارح فى بلواه:

- كتر خيرك يا ست سنية...

وقف حائراً وهو يشعر بالضياع أمامها كانت تنظر إليه برجـاء الأمومة الكامنة فيها. مد يديه إليها وهما ترتجفان، قال لها والدموع تترقرق فى عينيه:

- سآخذه معى يا ست سنية... وربنا يرزقك بالخَلَف الصالح...

(١١٧)

هيأ حافظ لرزق فَرشة من متعلقات عم عابد البسيطة، فرشها له فى التريسكل ووسده فوقها بحذر. سار هائماً على وجهـه وعينـاه مغرورقتان بالدموع. يحمل معه طفله الوليد بعـد أن هربـت أمـه

ومات جده... طفل وحيد فى هذه الدنيا وهو فى مستهل أيامه... ترى ماذا تخبئ له الأيام؟... إلى أين سيمضى به؟... من سيرعاه؟... لا أحد له سواه!... تذكر زبادى يوم التقطه من على قارعة الطريق... انهمرت دموعه وغامت الرؤيا فى عينيه. توقف ليلتقط أنفاسه. مسح دموعه وانحنى يتطلع إلى رزق. تأمله مليأ. حمله بين ذراعيه وقّربه من وجهه. تفرس فى ملامحه. أول مرة يدقق فى ملامحه. نظر إلى عينيه. رآه طفلاً جميلاً. ارتسمت بسمة على وجهه... سرح بفكره ثم قال له بصوت هادئ:

- لا تخشَ شيئاً يا رزق... سأربيك أحسن تربية... وليقدرنى الله أن أعوضك عن أمك.

بدت ملامح الهدوء على وجهه. تحرك بالتريسكل مغادراً مصر الجديدة. وقف يلتقط أنفاسه أمام مقهى بالعباسية. انحنى على رزق وحمله معه. دخل إلى المقهى وطلب شايأ... فكر فى رزق... لابد أنه جوعان. بدأ فى البكاء... كيف سأرضعه. جلس حائراً يهدهده. انتتر فجأة ودفع الحساب. وسد رزق على فرشته وتحرك بالتريسكل. سار محاذراً بشارع رمسيس، اخترق ميدان باب الحديد، عبر كوبرى شبرا كالمحموم، دخل إلى شارع الترعة البولاقية، وصل إلى شارع خلوصى فداف إليه قاصدا دوران شبرا، عبره إلى شارع روض الفرج وهو يلهث من التوتر.

وقف أمام البيت. انحنى وحمل رزق برفق. صعد بـه درجـات السلم وهو ينتفض. دخل إلى السطح. جرى إليه يوسـف. خرجـت صفية من الغرفة تستطلع الأمر. تسمرت لرؤيته وهو يحمل الطفـل بين يديه.

وقف أمامها صامتاً ينتفض والدموع تنهمر من عينيـه. تقـدمت صفية إليه بهدوء وهى تمد إليه ذراعيها.

قالت له بصوت يفيض بالحنان:

- هات الولد... هاته... يتربى مع إخوته...

تمـت

نعـيم صـبرى

٤ مارس ٢٠٠٥